سلسلة السيرة النبوية لكل الأعمار :

الحبيب محمد صل الله عليه وسلم

في مكـة

إعداد الدكتور

رجب محمود بخيت

دار العلم والإيمان

للنشر والتوزيع

239

ب . ر

، رجب محمود بخيت.

السيرة النبوية لكل الأعمار(الحبيب محمد د في مكة)/ رجب محمود بخيت.- ط1.-

دسوق: دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع.

160 ص ؛ 17.5 × 24.5سم .

تدمك : 6 - 589 – 308 – 977 – 978

1. السيرة النبوية .

أ - العنوان .

رقم الإيداع : 1972

الناشر : دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع

دسوق - شارع الشركات- ميدان المحطة – بجوار البنك الأهلي المركز

E-mail: *elelm_aleman@yahoo.com*

elelm_aleman2016@hotmail.com

2018

الفهرس

قائمة الموضوعات

المقدمة

الحمد لله القديم بلا غاية والباقي بلا نهاية الذي علا في دنوه ودنا في علوه فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان ولا يئوده حفظ ما خلق ولم يخلقه على مثال سبق بل أنشأه ابتداعا وعدله اصطناعا فأحسن كل شيء خلقه وتمم مشيئته وأوضح حكمته فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لسلطانه ووسع كل شيء فضله لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم .

والصلاة والسلام على رحمة الله للعالمين، وإمام المتقين، فخر العرب وعزها وعظيم البشرية كلها، وطبيب القلوب بل دوائها، وفرح الأرواح بل نعيمها:

كالبدر في شرف والزهر في ترف والبحر في كرم والدهر في همم

صلى الله عليه، وعلى آله الطيبين، الذين جعل الله مودتهم من الدين، وحبهم علامة المؤمنين، وعلى صحابته الذين امتازوا بشرف رؤيته، وفازوا بفضل صحبته وزكّوا بطيب رفقته، فأحبوه حب الأم وليدها، وذادوا عنه ذود الأسد عن آجامها وافتدوا به الآباء والأمهات، وفارقوا لأجله البنين والبنات، واستسهلوا الصعب لنشر دعوته، واستطابوا الموت في سبيل خدمته، وآزروه حتى استغلظ فاستوى على سوقه، فمات

وهو عنهم راض، وساروا على دربه بلا صدود أو إعراض، صلاة دائمة متصلة إلى يوم الدين. . واستفتح بالذي هو خير :

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ [سورة الممتحنة: الآية 4]

وبعد.

فإن الله سبحانه وتعالى جعل محمداً ف شاهداً على الناس أجمعين وجعل سلوكه أعظم سلوك، وتصرفاته أهدى تصرف، فكانت بذلك قدوة ومثلاً يحتذى، وميزاناً صادقاً للبشرية في أعمالها وتصرفاتها، وقد كان هذا الهدي واضحاً لدى الصحابة ي، فكانوا يترسمونه، ويسيرون على هداه ويتحرونه في كل أمورهم صغيرها وكبيرها ويقتدون به .فيجب على كل مسلم ومسلمة الإقتداء والتأسي برسول الله ف; فالإقتداء أساس الاهتداء، قال تعالى :

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً [سورة الأحزاب: الآية 21]

قال ابن كثير : "هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ف في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أُمِرَ الناسُ بالتأسي بالنبي ف يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه -عز وجل-". فمنهج الإسلام يحتاج إلى بشر يحمله ويترجمه بسلوكه وتصرفاته، فيحوِّله إلى واقع عملي محسوس وملموس، ولذلك بعثه ف بعد أن وضع في شخصيته الصورة الكاملة للمنهج- ليترجم هذا المنهج ويكون خير قدوة للبشرية جمعاء .

وأنا إذ أكتب عن سيرة الحبيب محمد ف فأني أشعر بسعادة غامرة لأنني قد نلت شرفا لا يدانيه شرف وحظوة يغبطني عليها الكثير ، وكوني قد خطت يدي سيرة رسول الله ف ، فهذه أمنية قد تأخرت كثيراً ، ولكن شاء الله عز وجل أن تحققت وهذا فضل من الله ومنة ، والله عز وجل أسأل أن يكتب لهذا العمل القبول بين المسلمين وأن يظل بين أيديهم وفي عقولهم وقلوبهم إلي قيام الساعة ، وأن يكون علم ينتفع به أثاب عليه بعد مماتي وعند لقاء ربي .أمين أمين .

كما أسأله سبحانه وتعالى التسديد لما يرضيه من الأقوال والأفعال، وأن يجعل هذا العمل في ميزاني يوم العرض عليه ، وأن يكون سببا في شفاعته ف اللهم ما وافق الحق مما كتبت فمنك وحدك وبفضلك وجودك وكرمك، وما خالف الحق فمني وأنا منه بريء، والحمد لله رب العالمين.

التعريف بشبه جزيرة العرب

هي أكبر شبه جزيرة في العالم، يبلغ متوسط عرضها سَبعمائة ميل، ومنتهى طولها ألف ومائتا ميل، ومساحتها تبلغ حوالي مليون مربع(1).

ويطلق العرب عليها -تجاوزًا- اسم جزيرة العرب(2)؛ حيث يرون البحار والأنهار تكاد تحيط بها من جميع أقطارها وأطرافها، فالخليج العربي، والبحر العربي، والبحر الأحمر تحدها من الشرق والجنوب والغرب، ويكمل الفرات الحد الشرقي. كما يكمل النيل الحد الغربي؛ ليلتقيا بالحد الشمالي وهو البحر المتوسط. وهذا التحديد الذي يقول به الهمداني يدخل بلاد الشام كلها، والبادية التي بين العراق والشام، وبادية سيناء في جزيرة العرب(3)،وبتحديد الهمداني أخذ بعض الجغرافيين المحدثين، ويختلف الجغرافيون في الحد الشمالي؛ فمنهم من يجعله صحراء النفود،

1) حافظ وهبة، جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص1.

2) الهمداني، صفة جزيرة العرب ، ص 46- 47، الآلوسي: بلوغ الأرب ، 1/ 187، ياقوت الحموي ، معجم البلدان، 1/ 100، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 15.

3) الهمداني، صفة جزيرة العرب ، ص 47. وهو يتفق مع التحديد الذي قال به "هيرودوت" حيث اعتبر النيل الحد الغربي لقارة آسيا وجعل صحراء مصر الشرقية كما هي معروفة الآن جزءًا من الجزيرة العربية، والفارق بين تحديد الهمداني وهيرودوت أن الأول لم يدخل صحراء مصر الشرقية في جزيرة العرب. أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 14.

وبذلك يخرجون بادية الشام من جزيرة العرب، غير أن طبيعة الأرض الجيولوجية تدخل بادية الشام وسيناء فيها، إذ إنها جزء لا يختلف من حيث طبيعته الصحراوية وخواصه عن سائر أنحاء بلاد العرب(4).

وعلى ذلك فحد جزيرة العرب من الشرق بحر عمان وخليج البصرة -خليج العرب- ونهر الفرات، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر وبرزخ السويس -قناة السويس حالياَ- ومن الشمال البحر المتوسط.

وتحتل جزيرة العرب موقعًا مم تازًا بين قارات العالم الثلاث القديمة، فهي تقع في الركن الجنوبي الغربي من قارة آسيا، كما تتصل بالقارة الأفريقية في ركنها الشمالي الشرقي حيث برزخ السويس قديمًا وقناة السويس في الوقت الحاضر، كما أنها تشرف بحدها الشمالي على شرق البحر المتوسط الذي يصلها بقارة أوربا. أما من ناحية الخريطة الحضارية للعالم قبيل الإسلام؛ فإنها تقع عند نقطة التقاء الحضارتين السائدتين يومئذ وهما حضارة الفرس وحضارة والروم.(5)

---

4) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام ، 1/ 86، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 14، حتى، تاريخ العرب ،ص 17 .

5) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ف، 1 / 14.

وإذا نظرنا نظرة عامة إلى خريطة بلاد العرب رأينا أنها أرَضون واسعة تنحدر تضاريسها من الغرب نحو الشرق، وهي مرتفعة في الغرب حيث جبال السراة(6) الممتدة من سورية وفلسطين إلى اليمن. وهي توازي ساحل البحر الأحمر وتقترب منه في مواضع عديدة. ويتراوح ارتفاع هذه الجبال ما بين عشرة آلاف قدم وثلاثة آلاف قدم. وتحصر بينها وبين ساحل البحر الأحمر أرض سهلية ضيقة تعرف بتهامة، تشرف عليها هذه المرتفعات وتنحدر إليها انحداراً شديدًا قصيراَ وسواحلها المهيمنة على البحر يصعب رسو السفن فيها لخلوها من المرافئ الصالحة، ولوجود الشعب المرجانية التي تمتد في بعض المواضع بعيدًا في البحر (7).

وتتألف الأراضي الوسطى من هضبة تسمى نجد، وتختلف في الارتفاع ما بين ستة آلاف قدم إلى أربعة آلاف قدم ما بين عسير والطائف، وإلى ألفين ومائتي قدم عند العلا. وحد نجد الغرب واضح بجبال السراة. أما حدها الشرقي فهو غير واضح وربما امتد إلى قرب خليج العرب.(8)

---

6) جبل السراة: الحد بين تهامة ونجد، وهو قطعة من جزيرة العرب التي هي طولا من أقصى عدن إلى ريف العراق وعرضا من جدة على ساحل البحر إلى أطراف الشام . الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، ص35، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 205/3

7) جورج فضـــلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص25، أحمد إبراهيم الشـــريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ف، 1 / 15.

8) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف ، 1 / 15.

وتمتد في الأقسام الجنوبية من شبه الجزيرة سلاسل من الجبال متفاوتة الارتفاع تشرف على المنخفضات الساحلية، وتكثر في الوديان التي تفصل بين هذه السلاسل الجبلية وتأخذ مختلف الاتجاهات، حيث تمثل اتجاهات المياه والسيول ويبلغ ارتفاع الجبل الأخضر الذي يقع في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة، أي في عمان، زهاء عشرة آلاف قدم(9).

وللحرار (10) أهمية خاصة في التشكيل الجغرافي للجزيرة العربية، وهي تكثر في شبه جزيرة العرب وخاصة في الأقسام الغربية. وتمتد حتى تتصل بالحرار التي في بلاد الشام ، كما توجد في المناطق الشرقية الجنوبية من نجد، وفي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية، وقد اشتهر كثير من مناطق الحرار بالخصب والنماء وبكثرة المياه فيها؛ ولا سيما حرار المدينة التي استغلت استغلالا جيدًا، ومنها خيبر فكثرت قراها وكثر سكانها. حتى قيل إنها خير قرى عربية، غير أن ظهور العيون فيها بكثرة، جعلها موطنًا من مواطن الحمى. اشتهر أمرها في الحجاز، حتى قيل حمى خيبر(11).

9) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 15.
10) والحرار أرض بركانية ومفردها حرة ، وقد تكونت من فعل البراكين . ابن منظور ، لسان العرب 2/ 242، 10/ 182.الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، 3/ 78 ، الفيومي المقري ، المصباح المنير 2/ 729 ، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 16.
11) اليعقوبي ، البلدان ، 8/ 410.

وشبه جزيرة العرب في جملة البلاد التي تكاد تنعدم فيها الأنهار والبحيرات، ويندر سقوط الأمطار عليها؛ ولذلك صارت أكثر بقاعها صحراوية قليلة السكان. غير أنها كثيرة الأودية التي تسيل في بعضها المياه عند سقوط الأمطار وبعضها طويل يسير في اتجاه ميل الأرض. كما أن بعضها الآخر وبخاصة التي تصب في البحر الأحمر قصير عميق المجرى شديد الانحدار، تنحدر فيه السيول بشدة إلى البحر فتضيع فيه، وربما كانت في بعض الأحيان خطراَ يهدد القوافل والمدن والأملاك، ويأتي على الناس بأفدح الخسائر (12). وإذا كانت البحار تحيط بجزيرة العرب؛ فإن الجو البحري لم يستطع أن يخفف من حدة الحرارة فيها أو يتغلب على جفافها، فإن الأبخرة المتصاعدة من البحر لا تكاد تصل إلى أواسط الجزيرة العربية، إذ إن الرياح الشديدة الحر تقاومها مقاومة شديدة، وتمنعها في الغالب من الوصول إلى أواسط شبه الجزيرة ، على أن الأقسام الجنوبية كثيرة المطر، تجلبه إليها الرياح الموسمية. ولأهل اليمن عناية بتصريف المياه والانتفاع بها منذ زمن بعيد، وقد أشار القرآن الكريم إلى ما كان في اليمن من حضارة وعمران وخصب ورخاء

12) حتى ، تاريخ العرب ، ص 20 ، البتنوني ،الرحلة الحجازية ، ص 259 ، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 16.

فقال: **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ** [سورة سبأ: الآية 15]

أما بقية بلاد العرب فتتكون من صحار، وسهول تغلب عليها الطبيعة الصحراوية.(13)

أقسام شبه الجزيرة العربية الطبيعية :

قسم العرب جزيرتهم تقسيمًا مسايرًا لطبيعتها الجغرافية إلى خمسة أقسام وهي : تهامة والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن.(14)

فأما تهامة ويقال لها الغور فهي الأراضي التي علي شاطىء البحر الأحمر ممتدة عرضاً إلي سلسلة جبال السراة وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها من التهم وهو شدة الحر وركود الريح (15) وسموها غوراً لانخفاض أرضها .

وأما الحجاز فهو سلسلة جبل السراة الممتد من أقصي الجنوب حيث اليمن إلي الشمال حيث بلاد الشام ، وإنما سميت حجازاً لأنها حجزت بين الغور ونجد .

---

13)حتى ، تاريخ العرب 9،جواد علي 1/ 86، أحمد إبراهيم الشريف،مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف،1/ 18.

14) الإصطخري، المسالك والممالك ، ص 20- 21 ، القلشقشندي، صبح الأعشى 4/ 245، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 20

15) أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكَرِيّا ، مقاييس الغة ، تحقيق : عبد السَّلام محمد هَارُون، نشر اتحاد الكتاب العرب ، طبعة 1423 هـ / 2002م ، 1 / 326

وذكر الجغرافيون العرب : إن الحجاز هو الجبال الحاجزة بين الأرض العالية نجد وبين الساحل الواطئ تهامة، فهو إذن الجبال الممتدة من خليج العقبةإلى عسير. لكن اسم الحجاز في العرف يشمل تهامة أيضًا، وقد عد بعض العلماء تبوك وفلسطين من أرض الحجاز .

وأما نجد فهو مادون ذلك الجبل إلي شرقيه يبتديء جنوبا من أدني حدود اليمن وينتهي إلي السماوة ، وينتهي من الشرق إلي العروض وأطراف العراق وسمي نجداً لارتفاع أرضه .

وأما اليمن : فهو ما كان جنوبي نجد إلي ساحل بحر الهند ويمتد شرقا إلى حضرموت (16) والشحر (17)وعمان وفيه التهائم والنجد (18).

---

16) يقع في جنوب الجزيرة ، يحده شمالا رمل الأحقاف المتصل بما يعرف اليوم بالربع الخالي ، وجنوبا بحر العرب المتصل بالمحيط الهندي ، وشرقا عمان والبحر العربي أيضا ، وغربا مقاطعة عدن أبين وقضاء مأرب .وكان حضـــرموت يتكون من ثلاث مقاطعات جغرافية هي : ظفار والمهرة والشـــحر ، غير أن ظفار معدودة اليوم من سلطنة عمان .وأهم مدن حضرموت اليوم : المكلا والشحر على البحر العربي ، وشبام وسيون وتريم وكلها ، في الداخل على وادي حضرموت .

17) ساحل البحر بين عدن وعمان ، القاموس المحيط ، 1 / 531

18) التهائم المنخفضات، والنجد المرتفعات ، ضياء الدين بن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 2 / 81

وأما العروض فينتظم بلاد اليمامة والبحرين وما والاهما وفيه نجد وغور لقربه من البحر وانخفاض مواضع منه ومسايل وأودية وسمي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق . (19)

كان هذا إجمال لتقسيم الجزيرة تقسيمًا طبيعيّا كما يراه جغرافيو العرب.

المناخ في شبه الجزيرة العربية :

يختلف المناخ في شبه جزيرة العرب باختلاف أقسامها ، ففي تهامة التي تجاور شواطئ البحر فالحرارة فيه شديدة مع ارتفاع نسبة الرطوبة للقرب من البحر وأبخرته ، وتشتد الحرارة في الجبال إذا صهرتها الشمس بحرارتها خصوصا الحرار منها لسواد لونها ، ويشتد بالجبال البرد في الشتاء حتى ضربت العرب بشدته الأمثال .

أما في الحجاز فتختلف مناطقه المناخية، كما تختلف من الناحية الطبيعية؛ فهناك مناطق جدباء شديدة الحرارة شحيحة المياه، محاطة بالجبال يعيش أهلها على ما يجلب إليها من الرزق جلبَا من الخارج،

19) الحِميري ،الروض المعطار في خبر الأقطار ، المحقق : إحسان عباس ،نشر مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - ، الطبعة الثانية - 1980 م، ص164 ، ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، نشر : دار الفكر– بيروت ، 5 /447 ، الهمداني، صفة جزيرة العرب،ص47- 48. محمد الخضري ، تاريخ الدولة العربية ، ص 11 ، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 21

ومن هذه المناطق منطقة مكة التي تقوم في واد غير ذي زرع(20) التي تميز بشدة الحرارة و شحة المياه وهذا ما جعل مهمة السقاية، وهي توفير الماء للحجاج، فضيلة عظيمة في نظر أهلها(21)،وفي الأنحاء المجاورة لمكة مناطق تجود فيها التربة وتغزر الأمطار وينبت الزرع والأشجار، مثل الطائف وأرباضها، والوديان التي بين مكة وجدة، ويثرب وأرباضها.(22)

أما نجد فما كان منها مجاوراً لأودية ومسايل المياه فإن الهواء يكون به معتدلا ، وما بعد عنها حره أكثر .

وجو اليمن وهواءه معدل في فصلي الخريف والشتاء ، والربيع ففيه المطر الكثير والرطوبات التي تستمر زمنا طويلا ويشتد به الحر في الصيف . (23)

---

20) انظر الآية 37 من سورة إبراهيم.
21) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1/ 121- 123، 145- 164.
22) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 27
23) محمد الخضري ، تاريخ الدولة العربية ، ص 13

أقوام العرب

من سنن الله سبحانه أن خلق الناس ، وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا كما أخبر بذلك في محكم كتابه،

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [سورة الحُجُرات: الآية 13]

والعرب في أصلها تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

العرب البائدة: فهم الأولى الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم وعاد وثمود وجرهم الأولى. وكانت على عهد عاد! فبادوا ودرست أخبارهم. وأما جرهم الثانية فهم من ولد قحطان، وبهم اتصل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ولم يبق من ذكر العرب البائدة إلا القليل.(24)

العرب العاربة "القحطانية": هم أولئك الذين يضربون بنسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، وهم يسمون بين أهل العلم بالعرب القحطانية.وسموا عربًا نسبة إلى: يعرب بن قحطان جد العرب العاربة،

---

24) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي ،مختصر سيرة الرسول ف،نشر دار الفيحاء دمشق ــ دار السلام الرياض،الطبعة : الطبعة الأولى 1417هـ ــ 1997م ، 1 / 43 ، الغضبان ، فقه السيرة النبوية، ص45، أبو شهبة، السيرة النبوية ،46/1

فإنه أول من نطق باللغة العربية الفصحى، وأخذها عنه أهل اليمن.والعرب العاربة مهدها اليمن، وقد تشعبت قبائلها وبطونها، فاشتهرت منها قبيلتان:

الأولى: حمير، وأشهر بطونها: زيد الجمهور ، و قضاعة ، و السكاسك

الثانية: كهلان ، وأشهر بطونها: همدان، وأنمار، وطيء ، ومذحج ، وكندة ولخم وجذام، والأزد ، والأوس، والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام ونتيجة الظروف الاقتصادية ، والصراع بين حمير وكهلان ، هاجرت بطون كهلان من اليمن قبيل سيل العرم ، وانقسموا إلى أربعة أقسام :

1- الأزد: وسيدهم عمران بن عمرو ، وسكنوا الحجاز ، وعُمان ، وتهامة

2- لخم وجذام: وفيهم نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة

3- بنوطيء: نزلوا بالجبلين أجا وسلمى في الشمال

4- كندة: نزلوا البحرين ، ثم حضرموت ، ثم نجد ، التي كوّنوا بها حكومة كبيرة. (25)

العرب المستعربة "العدنانية": وهم أولئك الذين ينحدرون من صلب سيدنا إسماعيل ؛ ويطلق عليهم أيضا " العرب العدنانية " وإنما أطلق عليهم هذا الاسم، لأن إسماعيل أباهم لم يكن عربي العصب والصلب،

---

25) محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 1 / 3 ، محمد الطيب النجار ،القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، نشر : دار الندوة الجديدة بيروت – لبنان ، 1 / 44

وإنما صاهر العرب وعايشهم وآكلهم وشاربهم، وتشارب اللغة من أفواههم، ومع أنهم عرب مستعربة إلا أنهم غدوا أفضل العرب برسول الله ف كما قيل.

والعرب المستعربة يرجع نسبهم إلى إسماعيل ؛الذي ولد في فلسطين ثم انتقل مع أمه إلى الحجاز ، ونشأ بها وتزوج، واشترك مع أبيه إبراهيم ؛في بناء الكعبة ، ورُزق إسماعيل من الأولاد اثني عشر ابناً ، تشعبت منهم اثنتا عشرة قبيلة سكنت مكة، ثم انتشرت في أرجاء الجزيرة وخارجها وبقي "قيدار" أحد أبناء إسماعيل في مكة ، وتناسل أبناؤه حتى كان منهم عدنان وولده معد، ومن هذا الأخير حَفظت العرب العدنانية أنسابها، وعدنان هو الجد الحادي والعشرون لنبينا محمد ف وقد تفرقت بُطون "معد" من ولده نزار، الذي كان له أربعة أولاد، تشعبت منهم أربع قبائل عظيمة: إياد وأنمار وربيعة ومضر والأخيران هما اللذان كثرت بطونهما، واتسعت أفخاذهما

فكان من ربيعة : أسد و عنزة ، و عبد القيس ، وابنا وائل - بكر و تغلبو حنيفة وغيرها

وكان من مضر : شعبتين عظيمتين : قيس عيلان ، و إياس فكان من قيس عيلان : بنو سليم ، وبنو هوازن ، وبنو غطفان التي منها : عبس وذبيان وأشجع .

وكان من إياس : تميم بن مرة ، و هذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمة و كنانة بن خزيمة التي منها قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وانقسمت قريش إلى قبائل شتى، أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدي ، ومخزوم ، وتيم وزهرة، وبطون قصي بن كلاب ، وهي: عبد الدار ، و أسد بن عبد العزى ،و عبد مناف. وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، و نوفل ، و المطلب ، و هاشم ، وهو الجد الثاني لنبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وفي اصطفاء نسبه ف يقول : (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم) (26) ولما تكاثر أولاد عدنان تفرقوا ، وانتشروا في بلاد العرب متتبعين سبل العيش فتوزعوا في البحرين، واليمامة ، والعراق ، وخيبر ، والطائف ، وبقي بتهامة بطون كنانة ، وأقام بمكة بطون قريش(27).

26) رواه مسلم

27) محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 1 / 3 ، محمد الطيب النجار ،القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 44 ، أبو شهبة، السيرة النبوية ، 1 / 48

حضارات العالم حول شبه جزيرة العرب

كانت القوى الكبرى المتحكمة في العالم آنذاك تتمثل في الفرس والروم حيث سيطرت القوتان على مساحات شاسعة من الأرض , وحكمتا شعوبا عديدة امتد نفوذها إليها , ولم يكن الفرس على دين صحيح بل كانوا مجوسا يعبدون النيران , وكان الروم نصارى , ولكنهم لم يحافظوا على التعاليم التي جاء بها عيسى؛بل حرفوها , لذلك لم تكن القوتان الكبيرتان في العالم آنذاك قادرتين على توجيه البشرية نحو التوحيد والعدل والفضيلة والخير , وكانت بقية الشعوب في الصين واليابان والهند والتبت تدين بالبوذية وهي ديانة وثنية ترمز لآلهتها بالأصنام الكثيرة وتقيم لها المعابد , وتؤمن بتناسخ الأرواح .

دولة الفرس

تعتبر دولة الفرس ، من أعظم وأكبر الدول التي سادت المنطقة ، بالقرب من شبه جزيرة العرب ، حتى إنها فاقت الإمبراطورية البيزنطية في الشهرة والقوة وكانت تلك الدولة تحكم بلاد إيران في القرن السابع الميلادي ويكوِن الفرس مادة الإمبراطورية, ولكنها أخضعت الترك في بلاد ما وراء النهر , والعرب في العراق وكانت حدودها الغربية غير مستقرة حسب قوتها , فأحياناً تغلب على أطراف بلاد الشام كما حدث سنة 614م عندما اجتاحت بلاد الشام واستولت على بيت المقدس , ثم استولت على مصر سنة 616م . ولم يستسلم هرقل إمبراطور الروم بل أعاد تنظيم بلاده وإعداد جيوشه وهزم الفرس في آسيا الصغرى سنة622م ,

ثم استعاد منهم سوريا ومصر سنة625م , ثم هزمهم هزيمة ساحقة سنة627م (6هـ) قرب أطلال نينوى , على أن أحوال الدولة الفارسية لم تستقر بعد ذلك , إذ تكاثرت الثورات والانقلابات الداخلية , حتى تعاقب على عرش فارس في تسع السنوات التالية أربعة عشر حاكماً , مما مزّق أوصال دولة الفرس , وجعلها مسرحاً للفتن الداخلية , حتى أجهز عليها العرب المسلمون في حركة الفتح ، ونظام الحكم فيها كان نظاما وراثيا كسروياً مطلقاً , يقف على رأسه الملك , ولقبه كسرى وصلاحياته مطلقة, وأحياناً يوصف بصفات الألوهية , واحتكر الأقوياء الثروة ومصادرها , وانهمكوا في مباهج الحياة وملذاتها , وزادوا من ثرائهم بالربا الفاحش والمكوس والضرائب الثقيلة التي فرضوها على الضعفاء من الفلاحين والعامة فزادوها فقراً وتعاسة , وحرّموا على العامة أن يشتغل الواحد منهم بغير الصناعة التي مارسها أبوه, وكان العامة من سكان المدن يدفعون الجزية كالفلاحين ويشتغلون بالتجارة والحرف, وهم أحسن حالاً من الفلاحين الذين كانوا تابعين للأرض , ومجبرين على السخرة, ويجرّون إلى الحروب بغير أجر ولا إرادة. وكانت الجباة للضرائب لا يتحرزون من الخيانة واغتصاب الأموال في تقدير الضرائب وجبايتها ,

وكانت الضرائب تفرض بصورة اعتباطية وخاصة وقت الحروب، مما اضطر كثير من الفلاحين والصناع إلي ترك أعمالهم ، أو دخول الأديرة والمعابد فرارا من الحروب والضرائب .(28)

وفي ظل هذا التردي السياسي والاقتصادي لم يعرف الفرس الدين الحق , ولم تنتشر بينهم الأديان السماوية التي سبقت ظهور الإسلام إلا بنطاق محدود جداً وكان أكثرهم على المجوسية, فمنذ القرن الثالث الميلادي جاء رجل يدعي زرادشت (29) بعبادة جديدة تقوم علي عبادة النار وصارت الزرادشتية ديناً للدولة, وقد تدهورت أخلاق رجال الدين الزرادشتي فوصفوا بالارتداد والحرص والاشتغال بحطام الدنيا,

28) مكاريوس ، تاريخ إيران ، ص 66 . كرايستنسن ، إيران في عهد الساسانيين ، ص 74 . ابن البلخي ، فارس نامه ، ص 31 ؛ مكاريوس ، المرجع السابق ، ص 66 – 67 ؛ دونالد ولبر ، إيران ماضيها وحاضرها ، ص 42

29) زرا دشت : ظهر أيام كشتاسب السابع وادعي النبوة ووضع أسس ديانة الزرادشتية ودعا إلي مذهب ثنوي يقوم على النور والظلمة . للمزيد انظر : الدينوري ، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط القاهرة ، (د.ت) ، ص 25، الشهرستاني ، الملل والنحل، جـ2 ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ط بيروت ، 1980م ، ص 236 ؛ عبد الله السامرائي ، الغلو والفرق الغالية ، ط بغداد ، ص 21 ؛ إدوارد بروي ، تاريخ الحضارات العام ، تعريب يوسف أسعد داغر – فريد داغر ، ط بيروت وباريس ، 1994، ص 135؛ محمد العريبي ، موسوعة الأديان ، جـ2 ، ط بيروت ، 1995 م ، ص 209 – 217؛ علي أصغر حكمت ، تاريخ أديان ، ط تهران ، 1345 هـ.ش، ص 155 – 160 ، محمد جواد مشكور ، دينكرد ، ط تهران ، 1325 ، ص 25

وتقوم العقيدة الزرادشتية على الثنوية , أي وجود إلهين في الكون هما إله النور وإله الظلام وهما يتنازعان السيطرة على الكون , ويقف البشر الأخيار مع إله الخير والأشرار مع إله الظلام، وتقدس الزرادشتية النار , وقد أقيمت معابد النيران في أرجاء الدولة , ويعرف رجال الدين الزرادشتيون بـ (الموابذة)(30) وكل منهم يرأس مجموعة يسمون (الهرابذة) (31).

وهناك الديانة المانوية التي انشقت عن الزرادشتية ، وهي تنسب إلي ماني الذي ظهر في القرن الثالث الميلادي ، وأحدث دينا بين المجوسية والنصرانية وجاء بمبدأ الظلمة والنور (1).

وتعاليم ماني تشبه إلي حد كبير تعاليم زرادشت ولكن يختلفان في أمر جوهري ، ذلك أن زرادشت كثير الأمل في المستقبل فهو يتوقع أن يتغلب الخير على الشر وإن طال الأمر ، أما ماني فكان متشائماً يائساً يري أن هذا الامتزاجلا خلاص منه إلا بالموت ،

---

30) مفردها موبذ وهي تعني قاضي القضاة،أنظر: الشيخ بكر أبو زيد، معجم المناهي اللفظية ومعه فوائد في الألفاظ،42/25

31) وهم الذين يخدمون نار المعبد في كل قرية وقيل عظماء أو علماء النار، ابن منظور، لسان العرب، 3 / 517

1) المسعودي،مروج الذهب ، 1 / 216 – 217 ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص 456 – 459 ، القلقشندي ، صبح الأعشى، 13/ 294 ؛ كارنامه برزكان إيران ، نشريه كل انتشارات ، تقديم مهدي بياني ونصرت الله معينيات ، تهران ، 1340هـ ، ص 159 – 162 ، عبد الله رازي ، تاريخ كامل إيران ، ص 109 – 111 .

ورأى زرادشت أن يعيش الإنسان حياة طبيعية فيتزوج وينسل ، ويعني بزرعه ونسله وماشيته ويقوي بدنه ، وبذلك ينصر إله الخير على إله الشر ، أما ماني فقد نزع منزعاً آخر أشبه ما يكون بالرهبنة فقد حرم الزواج حتى يستعجل الفناء ودعا إلي الزهد وشرع الصيام سبعة أيام من كل شهر وحرم ذبح الحيوان لما فيه من إيلام (2).

والديانة الثانية التي انشقت عن الزرادشتية المزدكية والتي تنسب إلي مزدك الذي ظهر في القرن الخامس الميلادي ، وهو فارسي من أهل نيسابور ودعا إلى مذهب ثنوي (ثنائي) جديد ، فقال بالنور والظلمة ولكن دعا إلي نوع من الشيوعية ، فرأى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، ولا مبرر للتفرقة بين شخص وآخر ، وأهم ما يجب المساواة فيه المال والنساء ، ونهي الناس عن المباغضة والقتال ، وأدت هذه الأفكار إلي انتشار الإباحية والفوضى الأخلاقية ، ولا سيما أنه دعا إلي إحلال زواج المحارم والاشتراك في نساء وأموال الآخرين (3) ، وظهرت تعاليم مزدك بصورة جلية في العصر العباسي ، لا سيما بين الشعوبيين بغرض النيل من الإسلام وقيمة الروحية والأخلاقية واعتنقها البعض لإرضاء شهواتهم ونفوسهم الضعيفة وليرتكبوا المحرمات (4) .

---

(2) أحمد الحفناوي ، حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام ، ص 428 – 429 ؛ على أصغر حكمت ، تاريخ أديان ، ص 169 .

(3) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص 65 ، 67 ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، 1 / 228 ؛ محمد الصادق عفيفي ، المجتمع الإسلامي ، ص 16 ؛ إحسان يار شاطر ، كيش مزدكي ، ص 10 – 36 .

(4) أحمد الحفناوي ، حركات ومؤامرات مناهضة في تاريخ الإسلام ، ص 431 – 432 .

ولم تكن الأحوال الاجتماعية بأحسن حال في دولة فارس فكان يفصل الحكام والنبلاء عن الشعب حدود محكمة , وكان لكل فرد مرتبته ومكانه المحددفي الجماعة , وكان من قواعد السياسة الساسانية المحكمة ألا يطمع أحد في مرتبة أعلى من المرتبة التي يخولها له مولده.

ولعبت الأفكار الإباحية التي نشرها زرادشت ومزدك دور كبير في إفساد المجتمع الفارسي فكانت تقوم أفكارهم علي أساس تعدد الزوجات , وشاع بينهم الزواج بين المحارم , وكان وضع المرأة يشبه وضع الرقيق حيث بإمكان الزوج أن يتنازل عنها لزوج آخر دون رضاها , كما شاعت عادة التبني للأولاد . وقد انتشرت الإباحية وعم الفساد الخلقي والاجتماعي.(32)

دولة الروم البزنطية :

كانت الإمبراطورية البيزنطية تضم الروم في آسيا الصغرى (تركيا حالياً) وتوسعت وضمت الأقطار الواقعة على حوض البحر المتوسط الشرقي والجنوبي وبذلك جمعت أجناسا عديدة من البربر والقبط والعرب إلى جانب الروم , ولم يكن بين هذه العناصر تجانس في الجنس واللغة والثقافة والتقاليد , وكانت الفكرة السائدة التي تدعمها الكنيسة النصرانية هي أن الله اختار الإمبراطور لهذا المنصب فأضحى بذلك موطن تبجيل وتقديس من رعاياه في أمور السياسة والدين

32) الثعالبي ، تاريخ غرر السير ، ص 606 ، مكاريوس ، تاريخ إيران ، ص 84 – 85 .

وكانت الطقوس والمراسيم تجري في البلاط بمشاركة الكنيسة ورجال البلاط , وكانت العاصمة هي القسطنطينية ، وكانت الظلم والجور فاشيا في تلك الإمبراطورية ، فلم يكن لعامة الشعب قيمة ، وكانت نظرة الحكام إليهم علي أنهم فقط مصدرا للخدمة في الحروب وجباية الضرائب ، في حين انشغل الحكام الأمراء باللهو واللعب والترف والملاهي . ومن الحالة الاقتصادية , فإن الربا والاحتكار هما أساسا النظام , وقد فرض الحكام ضرائب جديدة على أهالي الولايات المستائين من الحكم الروماني لتسديد الدين الكبير لحروبه ونزواتهم , وقد أصيبت الإمبراطورية البيزنطية بانحطاط هائل نتيجة المغالاة في المكوس والضرائب والانحطاط في التجارة وإهمال الزراعة وتناقص العمران , وأمام تعرض الرومان للضرائب الباهظة وخاصة الفلاحين فقد اضطر الكثير منهم إلي بيع أراضيهم والهجرة إلى المدن ، في حين كان أهالي المقاطعات غير الرومانية وخاصة السوريون يلجأون إلي بيع أبنائهم للوفاء بم عليهم من ديون (33) ورغم أن الإمبراطورية البيزنطية تدين بالنصرانية , لكن تعاليم النصرانية لم تبق كما جاء بها عيسى؛"بل إن تعاليم الكنيسة انطوت على قدر كبير من تفكير الفلاسفة الوثنيين واستخدمت الكنيسة وسائلهم وأسلحتهم العقلية في شرح العقيدة المسيحية" .

33) الندوي ، السيرة النبوية ، ص 31 – 32 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 13

وخلاصة القول أن النصرانية الحقة فقدت روحانيتها ووحدانيتها لما أدخله إليها داعيتها الكبير بولس من تعاليم وثنية نشأ عليها قبل تنصره , ولما تنصر الإمبراطور البيزنطي قسطنطين أدخل إليها مزيجا من الخرافات اليونانية والوثنية الرومانية والأفلاطونية المصرية والرهبانية , وبذلك تحرفت الديانة وضاعت تعاليمها الأصلية , وانحدرت إلى عبادة القديسين والصور .

وقد ظل المسيحيون يشاطرون الدولة البيزنطية الديانة المسيحية ويرتبطون معها بوشيجة الدم والدين إلي أن وقع الاختلاف فقد كان المسيحيون بها يعتنقون المسيحية على أساس الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ؛ولكن حينما اتخذ مجمع خلقدونية سنة 451 م قراراً باعتبار المسيحية في الإمبراطورية البيزنطية على مذهب القائلين بالطبيعتين للسيد المسيح ؛، وناصر أباطرة بيزنطة هذا المذهب بتعصب وحاولوا فرضه بالقوة وقد أدي هذا التعصب إلي الانشقاق بين الإمبراطورية البيزنطية ورعاياها في مصر وبلاد الشام ومناطق آسيا الوسطي وفشلت محاولة التوحيد الديني , وضعف ولاء اليعاقبة والمنوفستية في الشام ومصر للإمبراطورية البيزنطية . (34).

---

34) زكية محمد رشدي، السريانية وعلاقاتها بالعربية، مجلة الدراسات الشرقية ، العدد الثالث ، ديسمبر 1985 م،ص 12 .

وهذا الخلاف المذهبي يوضح مدى الانحدار الفكري والانحراف العقدي الذي أصاب شعوب الإمبراطورية حتى جعلوا عيسى ؛ وهو عبد الله ورسوله إلهاً سبحان الله عما يقولون . وكانت طبقات المجتمع البيزنطي جميعاً تؤمن بالتنجيم , والتنبؤ بالغيب , والعرافة , والاتصال بالشياطين والتمائم.(35)ومن الناحية الاجتماعية فقد شاع الفساد الأخلاقي والانحلال الاجتماعي داخل البلاط وفي أوساط الشعب . وكان الإمبراطور وقادة الجيش وكبار رجال الكنيسة يعيشون في أعلى السلم الاجتماعي في حين يقبع آلاف العبيد في المزارع الضخمة حيث يعانون من سوء التغذية وتدني مستوى المعيشة . ويقترب من مستواهم المعيشي الأحرار الذين يشتغلون في الصناعات , وهذه الطبقات من الفقراء كانوا يحسون بسوء حالهم , وكثيراً ما حاولوا القيام بثورات لم يوفقوا فيها . وكان أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم يؤلفون من بينهم طبقة وسطى كبيرة العدد وكانت الطبقية والإقطاع وفقدان العدالة الاجتماعية تطبع المجتمع البيزنطي , كما كانت القسوة والعنف والتعصب والجهل والخرافة تطبع حياة الأفراد.(36)

35) الندوي ، السيرة النبوية ، ص 31 – 32 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 14
36) الندوي ، السيرة النبوية ، ص 31 – 32 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 14

حضارات الجزيرة العربية

كان حكام جزيرة العرب قبيل ظهور دعوة النبي ف على قسمين :

ملوك مُتَوّجُون إلا أنهم في الحقيقة كانوا غير مستقلين ورؤساء القبائل والعشائر ـ وكان لهم من الحكم والامتياز ما كان للملوك المتوجين، ومعظم هؤلاء كانوا على تمام الاستقلال، وربما كانت لبعضهم تبعية لملك متوج .

والملوك المتوجون هم : ملوك اليمن، وملوك مشارف الشام [وهم آل غسان] وملوك الحيرة، وما عدا هؤلاء من حكام الجزيرة لم تكن لهم تيجان . وفيما يلي موجز عن هؤلاء الملوك والرؤساء .

حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار والسيول التي كانت تضيع في الرمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية متطورة، وأشهر هذه السدود (سد مأرب)، واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزكية، والثمار الشهية، قال عزّ شأنه:

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (17) [سورة سبأ: الآيات 15-17]

ودل القرآن الكريم على وجود قرى متصلة في الزمن الماضي مابين اليمن، إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشام، فلا يعدمون ظلاً، ولا ماءَ، ولا طعاماً. قال تعالى:

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (18) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (19) [سورة سبأ: الآيتان 18- 19]

حضارة عاد بالأحقاف:

وكان في شمال حضرموت وهم الذين أرسل الله إليهم نبي الله هود عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة ، ومصانع متعددة، وجنات، وزروع وعيون(37)

قال تعالى:كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) [سورة الشعراء: الآية 123-134]

37) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 1 / 50

حضارة ثمود بالحجاز:

دل القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر وأشار إلى ما كانوا يتمتعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيون وبساتين وزروع قال تعالى:كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (145) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (146) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (149) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (150) [سورة الشعراء: الآيات 141- 150]

لقد زال كل ذلك من زمن طويل، ولم يبق إلا آثار ورسوم وأطلال، فقد أضمحلت القرى والمدن، وتخربت الدور والقصور، ونضبت العيون، وجفت الأشجار وأصبحت البساتين والزروع أرضاً جروزا(38).

38) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 1 / 51 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 25 - 26

الحياة في جزيرة العرب قبل الإسلام

الحياة السياسية :

كانت شبه جزيرة العرب مفككة سياسياً لا توحدها دولة , ولا تديرها حكومة , وكانت الدول القديمة التي قامت في اليمن ونجد وأطراف العراق والشام قد اندثرت , وطغت البداوة على المدن الباقية في الحجاز , فكانت القبيلة هي الوحدة السياسية والاجتماعية ولم تكن بلاد العرب قبل ظهور الإسلام دولة عربية بالمعنى المتعارف عليه الآن من الدولة، بل كان هناك كيان اجتماعي طبيعي بالغ درجة النماء عرف باسم القبيلة يقوم فيه رؤساء العشائر والبطون برعاية شئون الجماعة.

فقد كانت القبيلة هي الوحدة السياسية التي تصرف أمور الناس سياسيا واجتماعيا بل واقتصاديا فهناك قريش في مكة وثقيف في الطائف، وقد جرى عرف العرب على الانتساب إلى القبائل لا إلى المدن، بل لم يعرف الانتساب إلى المدن إلا في القرن الثاني للهجرة.

وكانت اللُّحمة التي تؤلف بين أفراد القبيلة هي نفس اللحمة التي تربط بين أفراد الأسرة ونعني لُحمة الدم، فكانت وحدة الجماعة تقوم على تقديس الدم، وعلى تقديس هذه اللحمة تقديسًا تلقائيّا دون حاجة إلى قوة من خارج تقهر الجماعة على التماسك،

وكان الاشتراك في النسب،أو الاعتقاد بهذا الاشتراك -وهما من حيث النتائج العملية شيء واحد- بمثابة الروح التي تجعل القبيلة كالجسد الحي(39).

وقد وجد نظام حضري تام في أطراف الجزيرة العربية. فقد قامت ممالك اليمن في الجنوب، كما قامت مملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة غسان في الشمال الغربي، لكن القبيلة كانت وحدة النظام السياسي والاجتماعي في هذه الممالك، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد كالشعب المصري أو الشعب الروماني مثلًا، وإنما ظلت القبائل وحدات قائمة متمسكة بكيانها.

من كل ذلك نرى أن الفكرة القبلية هي جوهر الحياة السياسية والاجتماعية، ثم ضاعت منها القوة السياسية، وظلت وحدة المجتمع العربي في الإسلام.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، كانت تؤمن بوجود رابطة تجمعهم تقوم على أساسين: من وحدة الدم، ووحدة الجماعة. وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقة بين الفرد والجماعة على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت القبيلة تتمسك به أشد التمسك في نظامها السياسي والاجتماعي على السواء.

39) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ، ص 3-4 ، أحمد إبراهيم الشـــريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 28

وكانت الروح الديمقراطية تسود المجتمع القبلي، فكان لكل قبيلة رئيس يقال له السيد أو شيخ القبيلة، وأحيانًا يطلقون عليه -تجوزًا- الأمير أو الملك. وهذا السيد تنتخبه القبيلة، ولكنه لم يكن انتخاباً بالمعنى المفهوم لدينا الآن؛

وإنما كان اختيارًا تلقائيّا، فكل رجل في القبيلة فاق الآخرين في الفضائل التي منها الشجاعة والجود والغيرة وسعة الثروة وسداد الرأي وكمال التجربة مع كبر السن، يمكنه بهذه الصفات الممتازة الكفيلة بتحقيق مصالح القبيلة، أن يكون سيد قبيلته، وأن يكون الواجب أن يكون شيخ القبيلة من صريح نسبها، لنفور طباع العرب من أن يحكم في القبيلة أحد من غيرها، وقد راعى النبي ف ذلك حين كانت تأتيه وفود القبائل فكان يسود على كل قبيلة رجلًا منها ويجعله عليها لامتناع طباعهم أن يسودهم غيرهم(40).

كما يجب أن يكون شيخ القبيلة من أقوى بطونها وأذكرها شرفًا وأكثرها عصبية، حتى يكون له من الانتصار بعصبيته والاعتزاز بهم ما يمكن له من الرياسة ومن إطاعة القبيلة له واحترامها لرأيه. فإذا مات هذا السيد أو فقد بعض الصفات انتقلت السيادة إلى الآخر الذي تكتمل له، وهذا معنى القول بأن القبيلة تختار سيدها.(41)

---

40) ابن الأثير: أسد الغابة 1/ 136، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 31

41) ابن خلدون: المقدمة 148- 150، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 31

وشيخ القبيلة هو الذي يقودها في حروبها، ويقسم غنائمها، ويستقبل وفود القبائل الأخرى، ويعقد الصلح والمحالفات، ويقيم الضيافات؛ ولذلك كان لا بدمن أن تتوافر فيه صفات الشجاعة والكرم والنجدة وحفظ الجوار وإغاثة المعوز والضعيف، ولابد من أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة وما تدفعه من ديات كما كان عليه أن يصلح ذات البين فيها ويلم شعثها ويعمل على حفظ وحدتها مستعيناً في ذلك بشيوخها وأصحاب الشرف فيها، وجرياً على مبدأ ممارسة السلطان ممارسة جماعية، ودون أن تكون لديه هيئة إدارية أو تنفيذية أو قضائية كما يجب أن يكون حليمًا متسامحًا. وهكذا نرى أن شيخ القبيلة ليس ملكًا متسلطًا عليها، بل هو أب أكبر لكل أفرادها. وإلى ذلك يشير معاوية بن مالك سيد بني كلاب:

نعطي العشيرة حقها وحقيقها فيها، ونغفر ذنبها ونسود

وإذا تحملنا العشيرة ثقلها قمنا به، وإذا تعود نعود

وإذا نوافق جرأة أو نجدة كنا، سمي بها العدو نكيد

بل لا نقول إذا تبوأ جيرة إن المحلة شعبها مكدود(42)

ج

وهذا النظام القبلي كان يدعو إلى التنافس بين القبائل على النفوذ المادي والأدبي، فكانت كل قبيلة تجتهد في أن تكمل نفسها وتبسط نفوذها ولو على أنقاض غيرها من القبائل، ومن هنا كانت تسود العداوة والبغضاء بين القبائل المختلفة وتثور الحروب وتنشب المعارك لأوهى الأسباب بينهم، ولكن كان أفراد القبيلة يتناصرون فيما بينهم. ويدافع كل فرد عن أخيه مهما نأى عن الحق وتشبث بالباطل، ومن أقوالهم: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا "(43).

42) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 34

43) وقد جاء الإسلام بهذه القاعدة أيضًا لكن على غير المفهوم الجاهلي الظاهر، ولذلك سأل الصحابة النبي ف عن ذلك فقالوا: ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالما؟ قال: "تردوه عن غيه" أي: ظلمه.
وانظر هذا الحديث في "صحيح البخاري" 3/ 168، 9/ 28، و"سنن الترمذي" 2282، و"مسند أحمد" 3/ 99 و"سنن البيهقي الكبرى" 6/ 94، و"حلية الأولياء" 3/ 94، و"زاد المسير" 2/ 277، و"صحيح ابن حبان" 1847.

وكما يقول عنهم أحد شعرائهم مفتخراَ بقومه وعصبيتهم القبلية:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم   طاروا إليه زرافات ووحدانا

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا

والحروب والمعارك التي نشبت بين القبائل العربية في الجاهلية كثيرة جدا وقد يكون مع أحد الطرفين قوات غير عربية كما حدث في يوم "ذي قار" حيث كان الفرس يمثلون طرفا رئيسيا في المعركة، ويعاونهم بعض العرب.

والحروب بين القبائل كثيرة ومختلفة الأهمية ، فمنها ما هو واسع النطاق اشتركت فيه قبائل كثيرة، ومنها ما هو ضيق النطاق حدث بين عدد من القبائل.

ويقال:إن حروب العرب بلغت سبعمائة وألف حرب ، وهو رقم مبالغ فيه إلا إذا أخذنا في الاعتبار المعارك الصغيرة التي كانت تقع بين الرعاة بعضهم البعض.(44)

44) الميداني، مجمع الأمثال ، طبعة بيروت ، 1927م ، 1 / 17، الزبير بن بكار، أيام العرب ، القاهرة 1932م، 1/ 75

وقد أدى ذلك إلى تفكك المجتمع العربي وعدم الترابط بين أجزائه وهو تفكك كان ينذر بالانحلال وسوء المآل.. على أن التفكك وعدم الترابط بين القبائل كان يزول في بعض الفترات إذا ما تعرض العرب للغزو والعدوان الأجنبي.. حينئذٍ يقوم شيوخ القبائل، وينسون ما بينهم من نزاع وأطماع،

وتنمحي على الفور عصبيتهم القبلية وتنتقل إلى دائرة أوسع فتصبح عصبية عربية، تحقيقًا للمثل العربي القائل: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب.. ويظلون هكذا متماسكين متعاونين حتى تنجاب الغمة ويزول الخطر الأجنبي. فيعودون إلى سيرتهم الأولى من التفرق والضعف والانحلال.

ومن ذلك ما وقع في يوم "ذي قار" (45) في أواخر القرن السادس الميلادي حينما حاول كسرى ملك الفرس أن يستدرج النعمان بن المنذر إلى لقائه -بعد أن نشبت الخصومة- ثم قبض عليه وحبسه حتى مات، فلقد أدى ذلك إلى ثورة عاصفة بين القبائل العربية في كل شبر من الوطن العربي...

---

45) "الكامل في التاريخ" 1/ 285.

وقد قال أعشى بكر يصف الواقعة-في قصيدة طويلة-:

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم ... منا عطاريف ترجو الموت وانصرفوا

لقوا ململمة شهباء يقدمها ... للموت لا عاجز فيها ولا خرف

فيها فوارس محمود لقاؤهم ... مثل الأسنة لا ميل ولا كشف

لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ... ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

وكان الوطن العربي حينئذٍ يشمل شبه الجزيرة العربية إلى مشارف العراق والشام - وكان معنى هذه الثورة العربية على ملك الفرس التضامن التام والوحدة الشاملة بين العرب فتناسوا ما شجر بينهم من خلاف واجتمعوا تحت راية العروبة، والتقوا بكسرى في حرب عنيفة انتهت بتغلبهم عليه وهزيمة الفرس أمامهم، وكان هذا النصر ولا يزال أساسًا لفخرهم على توالي الأزمنة والعصور.(46)

الإمارة في الحجاز :

من المعلوم أن إبراهيم ؛جد العرب الأعلى قد هاجر من العراق إلى حاران أو حَرّان، ومنها إلى فلسطين، فاتخذها قاعدة لدعوته، وكانت له جولات في أرجائها وأرجاء غيرها من البلاد، وفي إحدى هذه الجولات أتى إبراهيم ؛على جبار من الجبابرة، ومعه زوجته سارة، وكانت من أحسن النساء، فأراد ذلك الجبار أن يكيد بها، ولكن سارة دعت اللّه تعالى عليه فرد اللّه كيده في نحره وعرف الظالم أن سارة امرأة صالحة ذات مرتبة عالية عند اللّه، فأخدمها هاجر اعترافًا بفضلها،أو خوفًا من عذاب اللّه،ووهبتها سارة لإبراهيم؛.

46) محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 63

ورجع إبراهيم ؛إلى قاعدته في فلسطين، ثم رزقه اللّه تعالى من هاجر ابنه إسماعيل، وصار سببًا لغيرة سارة حتى ألجأت إبراهيم إلى نفي هاجر مع ولدها الرضيع ـ إسماعيل ـ فقدم بهما إبراهيم ؛إلى الحجاز، وأسكنهما بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم الذي لم يكن إذ ذاك إلا مرتفعًا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فوضعهما عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ورجع إلى فلسطين، ولم تمض أيام حتى نفد الزاد والماء، وهناك تفجرت بئر زمزم بفضل اللّه، فصارت لهما قوتا وبلاغًا إلى حين .

وجاءت قبيلة يمانية ـ وهي جُرْهُم الثانية ـ فقطنت مكة بإذن من أم إسماعيل . يقال : إنهم كانوا قبل ذلك في الأودية التي بأطراف مكة، وقد صرحت رواية البخاري أنهم نزلوا مكة بعد إسماعيل، وقبل أن يشب، وأنهم كانوا يمرون بهذا الوادي قبل ذلك .

ثم إن إسماعيل ؛ لما شب وتعلم العربية من جُرْهُم، وأنفسهم وأعجبهم زوجوه امرأة منهم، وماتت أمه، وبدا لإبراهيم أن يطالع تركته، فجاء بعد هذا الزواج، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه وعن أحوالهما، فشكت إليه ضيق العيش فأوصاها أن تقول لإسماعيل أن يغير عتبة بابه،

وفهم إسماعيل ما أراد أبوه فطلق امرأته تلك وتزوج امرأة أخرى وهي ابنة مُضَاض بن عمرو، كبير جرهم وسيدهم على قول الأكثر . وجاء إبراهيم ؛مرة أخرى بعد أن تزوج إسماعيل هذه الزوجة الثانية فلم يجده فرجع إلى فلسطين بعد أن سأل زوجته عنه وعن أحوالهما، فأثنت على اللّه بخير، فأوصى إلى إسماعيل أن يُثَبِّتَ عَتَبَة بابه . ثم جاء إبراهيم ؛بعد ذلك فلقي ابنه إسماعيل وفي هذه المرة بنيا الكعبة، ورفعا قواعدها، وأذَّن إبراهيم في الناس بالحج كما أمره الله .

وقد رزق الله إسماعيل من زوجته ابنة مُضَاض اثنى عشر ولدًا ذكرًا،وهم : نابت أو نبايوط،وقَيْدار، وأدبائيل، ومِبْشام، ومِشْماع، ودوما، ومِيشا، وحدد، وتيما، ويَطُور ونَفيس، وقَيْدُمان .

وتشعبت من هؤلاء اثنتا عشرة قبيلة، سكنت كلها في مكة مدة من الزمان وكانت جل معيشتهم إذ ذاك التجارة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام ومصر، ثم انتشرت هذه القبائل في أرجاء الجزيرة بل وإلى خارجها، ثم أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان، إلا أولاد نابت وقيدار .

وقد أ زدهرت حضارة الأنباط ـ أبْناء نابت ـ في شمال الحجاز، وكونوا دولة قوية عاصمتها البتراء ـ المدينة الأثرية القديمة المعروفة في جنوب الأردن، وقد دان لهذه الدولة النبطية من بأطرافها، ولم يستطع أحد أن يناوئها حتى جاء الرومان وقضوا عليها .

أما قيدار بن إسماعيل فلم يزل أبناؤه بمكة، يتناسلون هناك حتى كان منه عدنان وولده مَعَدّ، ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها . وعدنان هو الجد الحادي والعشرون في سلسة النسب النبوي ف .

وقد عاش بنو إسماعيل في مكة فترة طويلة يتمتعون بالمجد والسلطان، وكان إلى جوارهم أخوالهم الجراهمة، ولكن الزمن الدوار قضى على بني إسماعيل بالتخلف والضعف، فانتزع أخوالهم السلطة من أيديهم. غير أنهم لم يبلغوا أمدًا طويلا حتى طغوا واستحلوا حرمة البيت وظلموا من دخل مكة من الحجاج وغيرهم، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى إليها، وظهر فيهم الفسق والفساد حتى إنهم كانوا يأتون الفحشاء والمنكر في جوف الكعبة، وكان ذلك السبب المباشر في ضعفهم وضياعهم، فأخرجهم الخزاعيون من مكة ، وأصبحوا كما قال شاعرهم عمرو بن الحارث بن عروة بن مضاض:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى: نحن كنا أهلها فأبادنا   صروف الليالي، والجدود العواثر

وكان الخزاعيون قد هاجروا من اليمن واستقروا في مكة إلى جوار الجراهمة فلما رأوا ما حل بهم من فساد وضعف وانحلال، انتهزوا هذه الفرصة واستولوا على النفوذ والسلطان في أوائل القرن الثالث الميلادي، وقد ظلوا سادة مكة زهاء مائتي سنة، ثم أدركهم داء الأمم وقلب الدهر لهم ظهر المجن، واستطاع زعيم قرشي من بني إسماعيل أن يحاربهم وينتصر عليهم ويعيد نفوذ أجداده القديم وسلطانهم على هذه البلاد، وهذا الزعيم هو: قصي بن كلاب، وهو الجد الرابع للرسول ف .

ومنذ رجعت السلطة والنفوذ إلى قصي، بدأ عهد جديد في النمو والازدهار لبني إسماعيل بعد أن ظلوا أمدًا طويلًا في ضعف وركود يكاد يشبه الموت، وكان أول خطوة خطاها قصي: أن جمع أفراد قريش المبعثرين في نواحٍ متعددة إلى وادي مكة. فاستحق بذلك لقب "المجمع"، وجعل لكل بطن حيّا خاصّا على مقربة من الكعبة.

وكان الناس قبل ذلك لا يجرؤون على البناء بجوار الكعبة مبالغة في تقديسها؛ ولكن قصيّا كانت حجته في ذلك أن يقيم على مقربة من البيت حماة له يتعهدونه بالصيانة ويدفعون عنه الخطر.

ولم يترك بين الكعبة والبيوت التي بنتها بطون قريش إلا بمقدار ما يسمح بالطواف، وقد أنشأت هذه البطون أحياء حصينة حول الكعبة من نواحيها الأربع.. وابتنى قصي لنفسه قصرَا جعل بابه يؤدي مباشرة إلى الكعبة. وكان هذا القصير يسمى دار الندوة، وكان قصي يتولى رئاسة هذه الدار،

وقد جعل من اختصاصها البت في كل الشئون العامة من تجارية وحربية وغيرها بعد مناقشتها، وكان لا يسمح بدخول هذه الدار إلا لمن بلغ عمرهم الأربعين سنة إلا إذا كان من سلالة قصي، وكان حكيمًا ومفوهًا. وكان القرشيون إذا أرادوا دخول الحرب يتلقون اللواء من يدي قصي، ومعنى ذلك أن هو القائد الأعلى في هذا المجال... وكانت عملية الزواج تتم في دار الندوة، فكان لا يتزوج رجل أو امرأة إلا من تلك الدار.

وقد استطاع قصي بأعماله أن ينمي في نفوس الناس صفة الكرم وحسن الضيافة فحمل الناس وشجعهم على دفع ضريبة سنوية تسمى: الرفادة، كان يقصد منها المعاونة على إطعام الحجاج الفقراء وغيرهم ممن يهبطون مكة في أيام منى... فجرى الأمر على ذلك في الجاهلية والإسلام، حيث لا يزال الولاة والملوك يعدون مثل هذا الطعام في كل عام.

وكان قصي يضم إلى جوار ذلك كله "السقاية"، والمقصود بالسقاية: تدبير الماء وحمله من آبار مكة المجاورة بالمزاود "القِرَب" ووضعه في أحواض لسقاية الحجاج، وكذلك كانت لقصي "الحجابة" "السدانة"، ويقصد بها حفظ مفاتيح الكعبة لا يفتحها إلا هو، ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه.

وهكذا يتبين لنا أن قصيّاً جمع في شخصه كل الوظائف الرئيسية -دينية كانت أم سياسية- فكان بذلك يعتبر وكأنه ملك العرب ورئيسهم الديني الأعلى، وقد أضفى ذلك على قبيلة قريش مجدًا وجاهًا عظيمين.

وقد توارث أبناء قصي هذا المجد والسلطان، حتى جاء من أحفاده عبد المطلب بن هاشم وهو الجد الأول لمحمد بن عبد الله -ف - فكانت السلطات -حينئذ- موزعة على عشرة من أشراف قريش، وكانت هذه المناصب تتوارث في أكبر الأبناء، وهذه المناصب هي:

1- الحجابة أو السدانة: والمقصود بها حراسة مفاتيح الكعبة، وكانت وظيفة دينية مهمة وضعت في يد بني عبد الدار بن قصي، ولما أسلمت مكة بعد الفتح ظلت السدانة في يد عثمان بن طلحة من بني عبد الدار، وقد قال لهم رسول الله ف: "خذوها تالدة خالدة إلى يوم القيامة لا ينزعها منكم إلا ظالم".

2- السقاية: ويقصد بها الإشراف على بئر زمزم المقدسة وسقاية الحجاج،وهذه وضعت في بيت هاشم وكانت في يد العباس بن عبد المطلب وقت فتح مكة.

3- الديات: وكان صاحبها إذا احتمل شيئًا فسأل فيه قريشًا أجابوه، وكانت في يد تيم بن مرة، وعند ظهور الإسلام كان يقوم بها عبد الله بن أبي قحافة "أبو بكر"، في أيام الرسول ف .

4- السفارة: وكان صاحبها ذا حق مطلق في البت في شئون الصلح بعد الحرب، أو الخلافات التي تقوم بين قريش والقبائل الأخرى، أو بينهم وبين الأجانب، وكان يقوم على هذا المنصب عمر بن الخطاب.

5- اللواء: وكان صاحبه يعتبر كبير القواد ويسير أمام الركب في أسفارهم للقتالأو التجارة،وكان اللواء في بني أمية وصاحبه منهم في أول الإسلام: أبو سفيان بن حرب.

6- الرفادة: وهي الإشراف على الضريبة التي تخصص لإطعام الفقراء، وكانت قريش تخرجها في كل موسم إلى صاحب الرفادة فيصنع منها طعامًا لفقراء الحجاج -مقيمين أو مسافرين- لأن الدولة كانت تعتبرهم ضيوف الله، وكانت الرفادة لعبد المطلب، ثم نقلت إلى أبي طالب ثم أخذها العباس وظلت في أولاده.

7- الندوة: وكان رئيس دار الندوة يعتبر رئيس الجمعية الوطنية، وكبير مستشاري الدولة، ولا تصدر قريش عن أمر إلا بموافقته، وكان الأسود بن عبد العزى بن قصي هو القائم على هذا المنصب في أيام الرسول ف .

8- الخيمة: ويقصد بها حراسة قاعة المجلس، وكان هذا المنصب يبيح لصاحبه الحق في دعوة الجمعية، وحشد الجنود وكان يتولى هذا المنصب خالد بن الوليد على عهد الرسول ف .

9- الخازنة: وكانت في بني حسن بن كعب ويقوم عليها الحارث بن قيس.

10- الأزلام: وهي التي يشرف صاحبها على السهام، وكان العرب يستقسمون بها لمعرفة رأي الآلهة، وكان القائم عليها صفوان بن أمية.

وكان العرف يقضي بأن أكبر أصحاب المناصب العشرة سنًّا هو الذي يتولى الرياسة ويلقب بسيد القوم، وكان على عهد الرسول -ف -: العباس بن عبد المطلب(47).

الحياة الاقتصادية

انقسم المجتمع العربي إلى بدو وحضر. فقد كانت البادية تعتمد على الاقتصاد الرعوي , فالقبائل العربية تستقر في الأماكن التي يتوفر فيها الماء وتصلح لرعي الإبل والأغنام والماعز .

وعندما يشح الماء فإنها تضطر للانتقال مما يجعلها في حروب مع بعضها للحصول على المورد الأفضل . ويقوم في المدن نشاط تجاري وزراعي وصناعي , وقد يغلب عليها نوع من هذه النشاطات , فمكة كان يغلب عليها النشاط التجاري لأنها تقع بواد غير ذي زرع , وتتحكم بطرق التجارة بين اليمن والشام حيث تمر القوافل محملة بالتوابل والبخور والعطور , وقد استفادت مكة من مكانة الكعبة الدينية عند العرب في حماية قوافلها التجارية وعقد " الإيلاف " مع القبائل التي تجتاز ديارها , واشتهرت برحلة الصيف الى الشام ورحلة الشتاء الى اليمن

47) محمد الخضري ، تاريخ الدولة العربية، ص 37– 37 ، صفي الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص 32 – 24 ، محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، ص47 – 51

أما المدينة - وكانت تعرف قبل الإسلام بيثرب - فكان يغلب عليها الاقتصاد الزراعي حيث اشتهرت ببساتين النخيل والأعناب والفواكه الأخرى والحبوبو الخضروات.

أما الطائف فقد غلبت عليها الزراعة وخاصة بساتين الأعناب والفواكه و الخضروات , وكذلك الصيد حيث تتوافر فيها الحيوانات البرية كالبقر الوحشي والحمار الوحشي والغزلان والظباء والأرانب.

وأما اليمامة فاشتهرت بزراعة القمح الذين كان يزيد عن حاجاتها فتصدر منه إلى الحجاز .

وأما اليمن ففيها زراعة واسعة ومناطق رعوية طبيعية إضافة إلى قيامها بالنشاط التجاري الكبير بنقل التوابل والبخور والعطور والأبنوس والعاج والحرير من الهند إلى بلاد العرب والشام .

وكانت السواحل الشرقية لشبه جزيرة العرب تربط تجارة الصين والهند بالهلال الخصيب (العراق وسوريا) . وكانت شبه جزيرة العرب تستورد الدقيق والزيت وا لأقمشة من الشام , كما تستورد التمور والأُدم من العراق . وقد ساعدت أسواق العرب في الجاهلية على نشاط التبادل التجاري , واشتهرت منها أسواق عكاظ ومجنّة وذي المجاز ودومة الجندل ونطاة - بخيبر - وبدر وحباشة . (48).

48) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، 1/ 337- 338، أحمد إبراهيم الشـــريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 / 74

والمجتمع القبلي بوجه عام -من وجهة النظر الاقتصادية- مجتمع بسيط التكوين يتألف من طبقتين اقتصاديتين: طبقة أصحاب الأموال من التجار وأصحاب الإبل الذين تتركز في أيديهم الثروة وتتحكم أموالهم في الحياة الاقتصادية وطبقة الفقراء الذين لم يستطعيوا المشاركة في النشاط التجاري الجارف في المدن والذين أوصدت طبيعة الحياة الرعوية في مجتمع البادية أبواب الثراء في وجوههم واستعمل العرب الدينار البيزنطي والدرهم الفارسي في التبادل التجاري , كما استعملوا المكاييل والموازين ومقاييس الطول في عمليات البيع والشراء أما الصناعة في شبه الجزيرة العربية , فقد اشتهرت اليمن بصناعة البرود اليمانية وعرفت المدينة بصياغة الحلي الذهبية والفضية ؛ وصناعة السيوف والرماح والقسي والنبال والدروع والحراب , كما قامت في المدن العربية حرف التجارة والحدادة والصياغة والدباغة , والغزل والنسيج , والخياطة , والصباغة . ولكن معظم الحرفيين كانوا من الموالي والعبيد ولم يكونوا عرباً . وقد شاع التعامل بالربا في مكة والطائف ويثرب ونجران , ومارسه اليهود وانتقل منهم إلى العرب , وكان على نوعين :

ربا النسيئة ؛ وهو زيادة المبلغ على المدين مقابل تأجيل الدفع .

ربا الفضل وهو الزيادة التي تترتب على بيع العينات المتماثلة بسبب اختلاف جودتها

وكان الربا يؤخذ أضعافا مضاعفة , وقد حرمه الإسلام بنوعيه , قال تعالى:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [سورة البقرة: الآية 275]

وكان العرب يعرفون أنواعاً من المعاملات المالية كالقراض والمضاربة والرهن , وكان الغرر يحيط بكثير من عقود البيع والشراء كالمنابذة والملامسة والنجش وبيع الحاضر للبادي . وكذلك كان الاحتكار يدخل في معاملاتهم التجارية , كما تفرض عليها المكوس الباطلة وقد حرّم الإسلام البيوع التي فيها غرر أو ضرر كما حرم الربا والاحتكار تحقيقاً للعدل بين الناس . (49)

ولما كان لكل قبيلة وحي من العرب فائض من الثروات تحتاج إلى الاتجار به أو استبداله بما هي في حاجة إليه، ويتم ذلك في الأسواق. وقد كان للعرب أسواق عامة يجتمعون فيها للبيع والشراء وتبادل المنافع، وكانت هذه الأسواق تقوم في أيام معينة من السنة، كما كانت تعقد في أماكن فسيحة يتوافر فيها الماء لسد حاجة المجتمعين،

49) شوقي ضيف ، العصر الجاهلي، ط دار المعارف، سنة 1960م،ص 375- 387، أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 /75

كما كانت تقوم بقرب المراكز الحضرية والتجارية، وكان الأعراب يفدون إلى هذه الأسواق يعرضون سلع البادية، وأحيانًا يعرضون ما وصلت إليه أيديهم عن طريق الغارة على القوافل أو على المسافرين، وليتزودوا من هذه الأسواق بما يلزمهم من مئونة وملابس وغيرها.

وكان أهم هذه الأسواق في الحجاز سوق عكاظ، وكانت تقوم في سهل منبسط بين مكة والطائف، وساعد على نموّ هذه السوق قيامُها في الأشهر الحرم التي كان يحرم فيها القتال، ويأمن الناس فيها على أموالهم وأنفسهم،وكذلك كانت توجد في منطقة مكّة سوق مجنة وذي المجاز، ويقضي العرب في هذه الأسواق حوائجهم، ثم يرتحلون إلى مكة لحجهم، كما كانت توجد أسواق أخرى في أنحاء شبه الجزيرة العربية منها دومة الجندل وصحار والشحر وعدن وصنعاء وعدة أسواق أخرى محلية تأتيها القبائل للامتيار.

وقد كانت عكاظ، أعظم هذه الأسواق وأشهرها، وطالمَا خرجت السوق عن وظيفتها الأصلية التي يفهمها الإنسان من السوق، وهي البيع والشراء، إلى أمور أخرى لا علاقة لها بالسوق التجارية، وهي المفاخرات والمباهاة والمسابقات في قول الشعر،

وافتداء الأسرى، وكثيراً ما كانت تعتقد فيها مجالس الصلح والتحكيم بين القبائل فتحلّ المشاكل المعقّدة، والناس مطمئنون إلى حرمة الأشهر الحرم التي تنعقد فيها السوق.(50)

الحياة الاجتماعية

تعتبر القبيلة هي الوحدة الاجتماعية في بلاد العرب وكانت كل قبيلة تؤمن بوجود رابطة تجمع بين أفرادها على أساس من وحدة الدم ووحدة الجماعةوفي ظل هذه الرابطة وفي ظل القانون العرفي الذي نشأ على أساسها: انقسم المجتمع القبلي إلى طبقات اجتماعية ثلاث:

1- طبقة الأحرار أبناء القبيلة الصرحاء: وهم الذين يجمع بينهم الدم الواحد والنسب المشترك.

2- طبقة الموالي: وهم من انضموا إلى القبيلة من العرب الأحرار من غير أبنائها عن طريق الجوار أو الحلف أو العتقاء من الأرقاء فيها.

3- طبقة الأرقاء: وهم المجلوبون عن طريق الشراء، أو أسرى الحروب.

ولكل من هذه الطبقات منزلته في السلم الاجتماعي، فنحن أمام مجتمع طبقي تفصل بين طبقاته حدود واضحة.

50) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 1/ 98 – 101 ، جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي،4 / 226 ، أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 1 /78

فطبقة الأحرار الصرحاء:

وهي الطبقة التي يعتبر أفرادها بنية القبيلة: فهم أبناؤها الذين يجمعهم نسب واحد ودم مشترك لم تلحقه هجنة. وكانت هذه الطبقة تتمتع بحقوق مدنية كثيرة، يقابلها كثير من الواجبات، نظمها القانون العرفي على أساس من التضامن التام بين الفرد والجماعة، فالحر يتمتع بحماية القبيلة حيّا وميتاً، فهي المسئولة عن أي جريرة يرتكبها أحد أبنائها، وعليها واجب الانتصار له مظلوماً، والوقوف إلى جانبه ظالماً، وكان يكفي أن يستغيث فإذا السيوف مصلتة والرماح مشرعة، وإذا الدماء تتصبب لأقل الأسباب:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   للنائبات على ما قال برهانًا(51)

وإزاء الحقوق التي يتمتع بها الحر، فإن عليه أن يتضامن مع قبليته، ويعمل من أجلها، ولا يتصرف إلا في حدود النطاق الجماعي الذي يحفظ عليها وحدتها فلا يخرج على إجماعها، ولا يحملها ما لا تطيق، وعليه من أجل ذلك أن يرفع من إحساسه بالرابطة الجماعية وأن يهدر في سبيلها كل نزعة فردية أو انفصالية من نفسه؛

51) أبو تمام: "حبيب بن أوس الطائي"، ديوان الحماسة، المكتبة الأزهرية، 1927م، 1/ 5.

فهو يضحي لها بنفسه كما يضحي بماله فهي حياته وكيانه، وهو مع اعتزازه بشخصيته وحريته، يعيش لها وتحت إطارها(52).

طبقة الأرقاء:

كان في المجتمع العربي طبقة كبيرة من الأرقاء، وكانت كل قبيلة لا تخلو من أفراد من الرقيق من الرجال والنساء، البيض والسود على السواء. والمصدر الأصلي للرقيق هو الحرب، فالقبيلة التي تنتصر على الأخرى تأخذ الأسرى وتستعبدهم، وإلى جانب الحرب وجد الاتجار بالرقيق، وكان هذا النوع من الاتجار شائعًا، فكان العرب يأتون من شواطئ أفريقيا ويبيعونهم في أسواق العرب بالمال، وإذا لاحظنا أنهم يؤخذون بالعنف، تبينا أن الحرب والغزو والقوة هي السبب الأول، كما كانت القبائل المنتصرة تتصرف في بعض الأحيان في أسراها بالبيع. وقد يغيرون على القوافل المسافرة إلى العراق أو إلى الشام ويتغلبون عليها ويأسرون من فيها ويسترقونهم، وكان هذا هو أصل رق سلمان الفارسي إذ خرج من العراق إلى الشام فاسترق وبيع لبعض يهود المدينة وكان مقياس الشرف عند العربي ألا يجري في عروقه دم أجنبي،

52) ابن الأثير، الكامل، 1/ 342 ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 5/ 147 ، الأصفهاني ، الأغاني ، 2/ 126، 3/ 59، الآلوسي ، بلوغ الأرب ، 3/ 133، 144، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 36/1.

وأن يكون من أب عربي وأم عربية، ومن كان هنا حرصه على أن يحفظ لسلالته نقاء الدم وصفته وامتيازه، وفي سبيل هذا الحرص كان يرفض الاعتراف بأبنائه أو إلحاقهم بنسبه إذا جاءوا ثمرة لصلة غير متكافئة بينه وبين إمائه، ومن أجل ذلك أطلق المجتمع الجاهلي على أبناء الإماء من العرب الصرحاء اسم "الهجناء"، وكان أسوأ أبناء الإماء حظًّا في الحياة أبناء الإماء السود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم وأطلق عليهم العرب اسم "الأغربة".(53)

وكانت هذه الطبقة محرومة مما نسميه الآن الحقوق المدنية، فليس لها حقوق الملكية والمقاضاة، وليس للعبد أن يتزوج إلا بإذن سيده على أن يتزوج رقيقًا مثله. كذلك كان أفراد هذه الطبقة يزاولون في المجتمع العربي المهن والصناعات التي يستنكفها العربي الصميم، ففي البادية يرعون الماشية، ويقومون بخدمة المنزل وفي الحواضر يقومون بممارسة الصناعات الموجودة هناك كالحدادة والنجارة والحلاقة والحجامة وغيرها، إذ إن العرب كانوا يأنفون من أمثال هذه الصناعات وكان وجود هذه الطبقة أمرَا عامّا في المجتمع القديم كله يحتمه الوضع الاقتصادي في ذلك الوقت.على أن العبد كان يمكنه أن يسترد حريته،

53) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 3/ 234 ، البلاذري ، أنساب الأشراف 486/1- 487، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 39/1.

وذلك بأن يؤدي لسيده خدمة عظيمة، كأن ينقذه هو أو أهل بيته من هلاك محقق -وهذا في الغالب شرط الحرية- أو يظهر شجاعة نادرة في موقعة من المواقع، فتكون هذه الشجاعة شفيعة للتحرر، أو بأن يتفق مع سيده على أن يشتري حريته بالمال، وهذا ما يسمونه بالمكاتبة، والرقيق الذي يتحرر بهذا يقال له المكاتب. أو بأن يوصي سيده بعتقه بعد وفاته تقرباً للآلهة، ويسمى هذا بالمدبر.(54)

ولقد كان للوضع السيئ لهذه الطبقة أثر كبير في سرعة استجابتها للدعوة الإسلامية ونجاحها في أطوارها الأولى، إذ إن الأرقاء والموالي هم الذين سارعوا لتلبيتها؛ لأن الإسلام قام بثورة اجتماعية فسوى بين السيد والعبد لقول الله تعالى:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ [سورة الحُجُرات: الآية 13]

وقول النبي -ف - : "كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى" . وقوله: "ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى" . وقد أنعشت هذه المبادئ نفوس هؤلاء المستضعفين والمحرومين فلبوا الدعوة التي تنتشلهم من الوهدة التي كانوا فيها.(55)

54) البلاذري ، أنساب الأشراف ، 1/ 487.

55) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 41/1.

طبقة الموالي:

والمولى يطلق على المالك والعبد، والمعتق، والصاحب والجار والحليف، وأولياء الرجل عصبته من إخوته وبني عمه وعشيرته، وتولاه اتخذه وليّا(56)، وقد ذكرت كلمة مولى في القرآن الكريم كثيراَ، وأريد بها النصير أو الحليف:

يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (12) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (13) [سورة الحج: الآية12-13]

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ [سورة الحج: الآية 78]

والجوار أن تضطر الظروف شخصا إلي الرحيل عن قبيلته ويلجأ إلى قبيلة أخرى يتصل بها ويعيش في حماها على أساس الموالاة بالجوار ، وحقوق الجار المترتبة على قيام الجوار

56) الفيومي ، المصباح المنير ، 2/ 972.

تتلخص في قول هانئ بن مسعود سيد بني شيبان حين أجار النعمان بن المنذر: قد لزمني ذمامك وأنا مانعك مما أمنع منه نفسي وأهلي وولدي، ما بقي من عشيرتي الأدنين رجل(57). الحليف هو جار بصفة لازمة، إذ إن صلته ليست مؤقتة كالجار؛ فالحلف جوار دائم، والحليف رجل حر انضم إلى قبيلة غير قبيلته؛ فمركزه الاجتماعي في القبيلة التي ينتمي إليها يلي مركز الحر الصميم فيها، وعليه من التبعات العامة ما على أفراد القبيلة الصرحاء؛ فإذا كان الحلف بين فرد وفرد صار الحليف مولى للرجل الذي حالفه، وأصبح كفرد من ذوي رحمه وقبيلته بالولاء،وقد كان الحليف يرث حليفه إذا مات، بهذا الحلف في الجاهلية ثم استمر في الإسلام.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا [سورة النساء: الآية 33]

حتى نسخ بآيات الميراث

وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [سورة الأنفال: الآية 75]

وبقيت عليهم النصرة والنصيحة والرفادة والعقل والولاء والمشورة.

---

57) الأصفهاني ، الأغاني، 2/ 126.

وكذلك كانت تقوم المحالفات بين القبائل، فتحالف قبيلة قبيلة أخرى أو عدة قبائل. وهذا التحالف يشبه المعاهدات السياسية في الوقت الحاضر؛ فإذا أحست قبيلة بضعفها أمام القبائل القوية انضمت إلى قبيلة قوية لتحميها، وقد تمر الأجيال وتنسى القبائل المتحالفة أسماءها وشخصياتها، وتنضم تحت اسم واحد.

ومن القبائل التي تمثل ذلك خير تمثيل قبيلة تنوخ التي قامت على أساس حلف عقدته بعض البطون الشمالية مع غيرها من قبائل الجنوب واستقرت في بادية العراق(58).

ومن الأحلاف التي ذكرها التاريخ في مكة حلف المطيبين وحلف الأحلاف وحلف الفضول. ومن أحلاف العرب المشهورة حلف الرباب وهو بين خمس قبائل: ضبة وثور وعكل وتيم وعدي، وحلف عبس وعامر ضد بطن ذبيان وأحلافهم من تيم وأسد. وحلف الحُمْس بين قريش وكنانة وخزاعة وكذلك حلف قريش والأحابيش(59)، ثم إن الإسلام منع أن تقوم أحلاف جديدة، ولكنه أكد الأحلاف التي تمت في الجاهلية.

قال ف: "لا حلف في الإسلام، وكل حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلامإلا شدة، وما يسرني أن لي حمر النعم، وأني نقضت الحلف الذي كان في دار الندوة".(60)

---

58) ألأصفهاني ، الأغاني2/ 242- 243، 316، 3/ 38، القلقشندي، نهاية الأرب، 189 ، شوقي ضيف، العصر الجاهلي، 58 ، بروكلمان، تاريخ الأدب العربي 124، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 47/1.

59) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1/ 143- 144، ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، 1/ 376

60) تفسير الطبري: 8/ 269- 288 "يعني حلف الفضول".

أما عن الموروث العربي من التقاليد فقد كان العرب يتعصبون لتقاليدهم تعصباَ شديدًا، ولو أدّى إلى الحرب وإراقة الدماء والمواقف المهلكة، وقد بلغ من قوة التمسك بالتقاليد، أن أصبحت عندهم دِينًا يعتبرونه أخذا من أمر الله

وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [سورة الأعراف: الآية 28]

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ [سورة البقرة: الآية 170]

وهذا يفسر لنا الموقف الشديد الذي اتخذه أهل مكة ضد الدعوة الإسلامية وضد النبي ف والمسلمين، فإن قوة التمسك بالتقاليد التي كانت من العوامل المؤثرة في ذلك من غير شك، ومن التقاليد التي سادت بين العرب الزواج من زوجة الأب والجمع بين الأختين والزنا والتخادن والمسافحة، والطواف العاري بالكعبة والذبح للأنصاب، وحرمة صيد البحر عند الإحرام(61) .

61) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 48/1.

واتسمت حياة البادية سواء من الناحية الاجتماعية بالقسوة وموت العاطفة عند الأعراب الفقراء حتى ليقتلون أولادهم خشية الإملاق، كما دنت قيمة المرأة عن قيمة الرجل، وإن كانت تسهم في الحياة العامة، فتشارك الرجل في حمل أعباء الحياة المدنية من القيام على المنزل وأعمال النسج والحياكة وإعداد الطعام؛ وكانت تتسم بالشجاعة وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة ، إلا أنها أقل غناء في الحرب، وفي هذا الجو المتغلغل اعتبرت عالة وتبرم بها الناس وبميلادها

إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (59)

[سورة النحل: الآية58- 59]

وقد بلغ الأمر ببعضهم فعلًا أن يدسها في التراب؛ فقد كان الجفاة من فقراء الأعراب يئدون بناتهم أحياء كراهية أن تشاركهم في طعامهم؛ لشدة الفقر أو كراهية أن تتعرض للسبي والمعرة في حالة الضعف (62).

وشمل التمييز ضد المرأة مختلف الجوانب المتعلقة بها من طرق النكاح والطلاق إلى الإرث والوأد وكانت فاحشة الزنا بين الإماء وأصحاب الرايات من البغايا،

62) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ف، 48/1، أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 88 / 1

ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدل على هذا من أن النبي ف لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح: (على أن لايشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين) قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: أو تزني الحرة؟!!

ولم تكن المرأة ـ في كل الأحيان ـ تلك الرهينة التي في حوزة الرجل ، بل كان لها دورها وأثرها في المجتمع ،وكان يؤخذ رأيها في الزواج فمن ذلك ما روي أنعتبة بن ربيعة قال لابنته هند ـ يستشيرها في أمر زواجها ـ : قد خطبك إلي رجلان السم ناقعاً يعني سهيل بن عمرو، والأسد عادياً يعني أبا سفيان، فأيهما أحب إليك أن أزوجك؟ قالت: الذي يأكل أحب إلي من الذي يؤكل؛ فزوجها أبا سفيان (63).

كما كان للمرأة أيدي بيضاء في تاريخ العرب فمن ذلك أن الصلحفي الحرب التي كانت بين عبس وذبيان كان سببه امرأة ، فيروي أن الحارث بن عوف بن أبي حارثة المري قال لخارجة بن سنان المري: أتراني أخطب إلى أحد فيردني؟ قال: نعم، قال: ومن ذاك؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي، فقال الحارث لغلامه: ارحل بنا، فركبا حتى انتهيا إلى أوس بن حارثة في بلاد ه، فوجداه في ثني منزله، فلما رآه قال: مرحباً بك يا حار، ما جاء بك؟

63) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 146 .

قال: جئتك خاطباً قال: لست هناك، فانصرف ولم يكلمه؛ ودخل أوس على امرأته مغضباً، وكانتمن بني عبس فقالت: من رجل وقف عليك فلم يطل ولم تكلمه؟ قال: ذاك سيد العرب الحارث بن عوف، قالت: فما لك لم تستنزله؟ قال: إنه استحمق، جاءني خاطباً قالت: أفتريد أن تزوج بناتك؟ قال: نعم، قالت: فإذا لم تزوج سيد العرب فمن؟ قال: قد كان ذلك، قالت: فتدارك ما كان منك، قال: بماذا ؟ قالت: أن تلحقه فترده. قال: وكيف وقد فرط إليه مني ما فرط؟ قالت: تقول: إنك لقيتني وأنا مغضب بأمر لم تقدم فيه قولاً، فلم يكن عندي من الجواب إلا ما سمعت، فأنصرف ولك عندي كل ما أحببت، فركب في أثرهما؛ قال خارجة بن سنان: فو الله إنا نسير إذ حانت مني التفاتة فرأيته، فأقبلت على الحارث وما يكلمني غماً، فقلت له: هذا أوس بن حارثة في أثرنا، قال: وما نصنع به؟ امض، فلما رآنا لا نقف عليه صاح: يا حار أربع علي، فوقفنا له وكلمه بذلك الكلام، فرجع مسروراً، فبلغني أن أوساً لما دخل منزله دعا ابنته الكبرى وأعلمها خطبة الحارث بن عوف فقالت:لا تفعل. قال: ولم؟ قالت: لأن في وجهي ردة وفي خلقي بعض العربدة، ولست بابنة عمه فيرعى حقي، وليس بجارك فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني،

فيكون علي في ذلك ما تعلم؛ قال: قومي بارك الله عليك، ثم دعا بابنته الوسطى وقال لها كمقالته للكبرى، فقالت له: أنا خرقاء، وأجابته بنحو جواب أختها. فقال: أدعوا لي بهيسة، يعني الصغرى، فقال لها كمقالته لأختيها فقالت: أنت وذاك. فقال لها: إني عرضت ذلك على أختيك فأبتاه، فقالت: لكني والله الجميلة وجهاً، الصناع يداً، الرقيقة خلقاً، الحسيبة أباً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير. قال: فخرج إلينا وقال: قد زوجتك يا حار بهيسة بنت أوسقال: قد قبلت؛ فأمر أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها، ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه، ثم خرج إلي فقلت: أفرغت من شأنك؟ فقال: لا، قلت: وكيف؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه أعند أهلي وإخوتي؟! هذا والله ما لا يكون قال: فأمر بالرحلة فأرتحلنا بها معنا، فسرنا ما شاء الله ثم قال لي: تقدم فتقدمت، وعدل بها عن الطريق، فما لبث أن لحقني فقلت: أفرغت؟ قال: لا والله قلت: ولم؟ قال: قالت لي: أكما يفعل بالأمة الجليبة والسبية الأخيذة؟ لا والله حتى تنحر وتذبح وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي، قال: قلت والله إني لأرى همة وأرى عقلاً وإني لأرجو أن تكون المرأة النجيبة. فرحلنا حتى جئنا بلادنا فأحضر الإبل والغنم ودخل عليها ثم خرج فقلت: أفرغت؟

قال: لا والله، قلت: ولم؟ قال: دخلت عليها أريدها، وقلت لها: قد أحضرنا من المال ما تريدين. فقالت: والله لقد ذكرت لي من الشرف بما لا أراه فيك، قلت: وكيف؟ قالت: أتتفرغ لنكاح النساء والعرب يأكل بعضها بعضاً؟! وذلك في أيام حرب عبس وذبيانقلت: فتقولين ماذا؟ فقالت: أخرج إلي هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتوك، فقلت: والله إني لأرى همة وعقلاً ولقد قالت قولاً. قال: فاخرج بنا، فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح، فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى ثم يؤخذ الفضل ممن هو عليه، فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين، فانصرفنا بأجمل الذكر.(64)

كما كانت الخمور متعمقة في المجتمع العربي قبل بعثة النبي فوفي البيئة العربية صار شرب الخمر جزءاَ من السلوك الاجتماعي الذي يفاخر به ويتغنى به الشعراء . (65)

وبالرغم من تلك المفاسد المستشرية في المجتمع العربي إلا أنه كان به بعض الخير لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء، ولا يظلمون، ويتحرجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا(66) وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة ،

64) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 1 / 146 ، اليوسي ، زهر الأكم في الأمثال و الحكم ، 1 / 133

65) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 1 / 93 .

66) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 1 / 94 .

كما أن قلوبهم صافية لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها كما في الشعوب الهندية والرومانية واليونانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالةفي الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة(67).

كما كانوا أهل كرم وسخاء فقد يكون الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال(68).

كما كانوا أهل الشجاعة ومرؤة ونجدة فكانوا يتمادحون بالموت قتلاً ويتهاجون بالموت على الفراش واشتهر العرب بالشرف وصيانة العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم وكان العرب مجبولون علي الشهامة والمروءة؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة أو الشيخ وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عن من لجأ إليهم ،

---

67) الندوي ، السيرة النبوية ، ص12.

68) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 1 / 95 .

وهذا الأمر بدا واضحا جدا في عقود الأحلاف والموالاة ، كما أن عيشتهم البدوية والتعود على الترحال أكسبهم عشق الحرية والانطلاق وإباء الضيم والذل ، فقد كان العربي بفطرته يعشق الحرية يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقاً لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون الضيم والاستصغار والاحتقار وليس أدل علي ذلك من اجتماع العرب في يوم ذي قار وفاءَ للعهد وإباءَ للضيم والصغار (69).

كما كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام، وقصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله - ف - وكانت الحروب بينهم قائمة - قال: (لولا أن يأثروا عليّ كذباً لكذبت عليه)(70).

كما أن طبيعة بلاد العرب الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء،قد أكسبتهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد فألفوا اقتحام الجبال الوعرة

69) وذلك أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لما منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النعمان فأبى، فسير إليه كسرى جيشاً لقتاله فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: «يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد» وانتصر العرب على الفرس في موقعة ذي قار، فالعرب احتقروا حياة الذل والاستكانة، ورأوا الموت شرفاً في ساحة العز. أبو البقاء الحلي ، المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية ، ص 111 ، جواد علي،المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، نشر دار الساقي ، الطبعة الرابعة 1422هـ/ 2001م ، 5 / 293 ،

70) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي رقم 7.

والسير في حرّ الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعدا لمسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ (71).

هذه الفضائل والأخلاق الحميدة كانت رصيداً ضخماً في نفوس العرب فجاء الإسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحارى كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملأوها إيماناً بعد أن ملئت كفراً، وعدلاً بعد أن ملئت جوراً، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل وخيراً بعد أن طفحت شراً(72).

ويتكلم سكان شبه جزيرة العرب اللغة العربية , وتنتمي إلى مجموعة اللغات السامية , بل هي أقدمها . وأقدم نقوش عثر عليها باللغة العربية ترجع إلى القرن الرابع الميلادي . وقد قامت حركة أدبية شفهية واسعة شعراً ونثراً صاحبتها حركة نقدية للخطب والأشعار التي كانت تلقى في الأسواق الجاهلية (عكاظ , المربد , مجنة ...) , وقد ساعدت هذه اللقاءات الأدبية على توحيد لغة العرب , حيث سادت لغة قريش التي نزل بها القرآن . فتمكن العرب جميعا من فهمه لما حدث من تقارب في لغتهم ولهجاتهم . ويفصح شعرهم وخطبهم قبيل الإسلام عن براعة أدبية وتوسع لغوي وذوق للمعاني مما يدل على الرقي والازدهار الأدبي مما هيأ للمعجزة البيانية للقرآن

71) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 1 / 97 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1/ 39 – 40
72) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 1 / 97 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1/ 39 – 40

حيث تحداهم فيما يجيدون من صناعة الكلام وبلاغة التعبير ورهافة الشعور وقوة الحس .

وقد أنجز القرآن وحدة العرب اللغوية عندما قرؤوه باعتبار أول كتاب مدون في تاريخهم بعد تاريخ أدبي محفوظ . ومن الجدير بالذكر أن العرب لم يتأثروا بالفلسفات اليونانية والقوانين الرومانية , ولم تنشأ بينهم مدارس فكرية معقدة فكانوا مهيئين لتلقي الرسالة الإسلامية وحملها بنقاوتها وصفائها دون أن تشوبها أو تدخلها أفكار أجنبية فكان ذلك من تهيئة الله تعالى الظروف الملائمة لاستقبال العرب لرسالة الإسلام .

الحياة الدينية

كان معظم العرب يدينون بدين إبراهيم ؛منذ أن نشأت ذريته في مكة وانتشرت في جزيرة العرب، فكانوا يعبدون الله ويوحدونه ويلتزمون بشعائر دينه الحنيف، حتى طال عليهم الأمد ونسوا حظًا مما ذكروا به، إلا أنهم بقى فيهم التوحيد وعدة شعائر من هذا الدين، حتى جاء عمرو بن لُحَيَ رئيس خزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له، ظنًا منهم أنه من أكابر العلماء وأفاضل الأولياء .

ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنه حقًا؛ لأن الشام محل الرسل والكتب، فقدم معه بهُبَل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى الشرك بالله فأجابوه، ثم لم يلبث أهل الحجاز أن تبعوا أهل مكة؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم .(73)

وكانت العرب في جاهليتها فرقا: منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور موقن بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي، كقس بن ساعدة المشهور بالفصاحة ورباب الشني وبحيرا الراهب وكان من عبد القيس، ومنهم من أقر بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والإعادة وأنكر الرسل وعكف على عبادة الأصنام، وهو الذين حكى الله تعالى قولهم:

أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ [سورة الزّمَر: الآية 3]

73) محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 2 / 177 ، صفي الرحمن المبار كفوري ، الرحيق المختوم ، ص 31

وهذا الصنف هم الذين حجوا إلى الأصنام وقصدوها ونحروا لها البدن ونسكوا لها النسائك، وحرموا لها وأحلوا لها. ومنهم من أقر بالخالق والبدء وكذب بالرسل والبعث ومال إلى قول أهل الدهر، وهم الذين أخبر الله عنهم

بقوله:

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ [سورة الجاثية: الآية 24]

. ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية. وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله تعالى وتقدس عن قولهم، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم عند الله وهم الذين أخبر الله عنهم

بقوله:

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ [سورة النحل: الآية 57]

وقوله:

مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ [سورة النجم: الآية 19] .

"ومنهم من كان يعبد الجن، وكانت علومهم علم الأنساب والأنواء والتواريخ وتعبير الرؤيا، وكانت لأبي بكر ا فيها يد طولى، وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاء الإسلام بها، وكانوا لا ينكحون الأمهات ولا البنات، وكان أقبح ما يأتونه الجمع بين الأختين، وكان الرجل منهم يتزوج امرأة أبيه، وكانوا يغتسلون من الجنابة وكانوا يداومون على المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان، وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى، وكانوا يحجون ويعتمرون.(74) ولقد عبد العرب الأصنام بشتى أنواعها، وجميع أصنافها فلقد عبدت طوائف من العرب الأصنام التي انتقلت إليهم من الأمم السابقة مثل : ودّ، وسواع ويغوث، ويعوق، ونسر، والتي كانت في قوم نوح، وانتشرت عبادة تلك الأصنام بين القبائل العربية، كما دل على ذلك حديث ابن عباس م : (صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ودّ كانت لكلب بدومة الجندل، وأما سُواع كانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف عند سبأ،

74) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي ،مختصر سيرة الرسول ف، دار الفيحاء دمشق - دار السلام الرياض، الطبعة الأولى 1417هـ - 1997م، 1 / 42 - 43

وأما يعوق فكانت لهمْدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكَلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتَنَسّخَ العلم عُبدَت)(75).

وكانت العرب تعبد إضافة إلى تلك الأصنام أصنام قريش كاللاَّت، والعزّى ومناة، وهبل:فصنم مناة - وهو أقدم أصنامهم - كان منصوباً على ساحل البحرمن ناحية المشلل، بقديد بين مكة والمدينة . وكانت العرب تعظمه، ولم يكن أحد أشد تعظيماً له من الأوس والخزرج، وقد بعث رسول الله - ف - علياً ا فهدمه عام الفتح .

أما صنم اللات فقد كان في الطائف، وهو عبارة عن صخرة مربعة، وكان سدنتها ثقيف، وكانوا قد بنوا عليها بيتاً، فكان جميع العرب يعظمونها، ويسمون الأسماء بها، فكانوا يقولون: زيد اللات، وتيم اللات، وهي في موضع منارة مسجد الطائف . فلما أسلمت ثقيف، بعث رسول الله - ف - المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار.

أما صنم العزى فإنه أحدث من اللات، وكان بوادي نخلة ، فوق ذات عرق وبنوا عليها بيتاً، وكانوا يسمعون منها الصوت، وكانت قريش تعظمها . فلما فتح رسول الله - ف - مكة ، بعث خالد بن الوليد فأتاها فعضدها، وكانت ثلاث سمرات، فلما عضد الثالثة

---

75) رواه البخاري

: فإذا هو بحبشية نافشة شعرها، واضعة يدها على عاتقها، تضرب بأنيابها، وخلفها سادنها، فقال خالد : يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك، ثم ضربها ففلق رأسها، فإذا هي حممة - أي رماد-، ثم قتل السادن.

أما صنم هبل فقد كان من أعظم أصنام قريش في جوف الكعبة وحولها وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان، وكانوا إذا اختصموا، أو أرادوا سفراً أتوه، فاستقسموا بالقداح عنده . وهو الذي قال فيه أبو سفيان يوم أحد : أعل هبل، فقال رسول الله - ف - : قولوا : (الله أعلى وأجل) رواه البخاري .

ومن الأصنام التي كانت تُعبد :إساف ونائلة، قيل أصلهما : أن إسافاً رجل من جرهم، ونائلة امرأة منهم، دخلا البيت، ففجر بها فيه . فمسخهما الله فيه حجرين فأخرجوهما فوضعوهما ليتعظ بهما الناس، فلما طال الأمد عبدا من دون الله.

ومع انتشار عبادة الأصنام بقي أناس حفظهم الله من عبادة غيره سبحانه استجابة لدعوة إبراهيم ؛:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ [سورة إبراهيم: الآية 35] ،

واستمرت عبادة تلك الأصنام في بلاد العرب حتى ختم الله رسالاته بمحمد - ف - ،
الذي طهر الله به البلاد، ووجه العباد إلى المعبود بحق، الذي لا يجوز أن يُعبد أحد غيره أو يشرك في عبادته أحد،
يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمٌّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ [سورة الصف: الآية 8] .(76) وكان العرب يتخذون التمائم والتعاويذ والرقى , ويحملون أسنان ثعلب أو كعب أرنب ويعتقدون أن فيها قوى سحرية خفيّة , تجلب لحاملها الخير وتبعد عنه الشر. وكانوا يستقسمون بالأزلام ؛ وهي عيدان عليها رموز وعلامات يرمونها بالماء , وينتظرون خروجها , وبذلك يستشيرون آلهتهم فيما سيقدمون عليه من عمل.
أما العقائد الأخرى التي انتشرت بصورة محدودة فمنها اليهودية التي تمثلها بعض القبائل في المدينة والأفراد في اليمن واليمامة وكانوا يستعملون في أدبياتهم الدينية اللغة العبرية والآرامية , ويتكلمون العربية فيما بينهم في حياتهم اليومية , وقد تأثروا بعادات العرب وتسموا بأسمائهم , وكانت لهم مدارس يتدارسون فيها التوراة والمشنا والتلمود , وتعرف بالمدارس التي هي موضع عبادة وصلوات وندوات لهم أيضاً . وكانوا يتعاطون السحر , ويحرمون العمل يوم السبت , ويصومون عاشوراء ,

76) سلمان بن فهد العودة ، الغرباء الأولون ، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، عام 1410هـ، ص 60

ويلزمون بالأعياد اليهودية , ومعظمهم أميون كما وصفهم القرآن وأصبحت اليهودية في ذلك الوقت مجموعة من الطقوس والتقاليد لا روح فيها ولا حياة وتأثرت بعقائد العرب التي جاورتها واحتكت بها والتي وقعت تحت سيطرتها فأخذت كثيراً من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية.كما إن المجتمع اليهودي قبل البعثة المحمدية قد وصل الى الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني فإذا طالعت تلمود بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي تجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل وسخف العقول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل(77).

ومن العقائد الأخرى النصرانية التي دخلت بلاد العرب عن طريق التبشير الذي قام به الرهبان والتجار النصارى والرقيق المستورد من بلاد نصرانية وكانت الإمبراطورية البيزنطية تشجع التبشير ، لأنه يمهد لسلطانها السياسي . وقد انتشر مذهب اليعاقبة من بلاد الشام والعراق إلى دومة الجندل وأيلة وبعض دياطيء   وأفراد بمكة ويثرب والطائف وخاصة من الأحابيش والرقيق .

77) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 /25-26 ، الندوي ، السيرة النبوية ، 1 / 25

لكن أهم مراكز النصرانية في بلاد العرب كانت في اليمن وخاصة نجران كما انتشرت بصورة محدودة في البحرين وقطر وهجر . وكانت الآرامية هي لغة العلم والدين عند النصارى الشرقيين عامة ؛ ولكن الإنجيل كان يكتب بالعربية أيضاً كما في خبر ورقة بن نوفل. ولم تسلم المسيحية ـ شأنها في ذلك شأن اليهودية من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء السحب الكثيفة، واندلعت الحروب بين النصارى حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت البيوت والمدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتى (78)

وقد انتشرت المجوسية من إيران إلى بعض بلاد العرب , كالحيرة بحكم الجوار , واليمن لورود الحملة الفارسية عليها لطرد الأحباش , وحضرموت ومناطق أخرى شرق شبه جزيرة العرب لقربها من إيران , ولم يكن هذا الانتشار المحدود بدعوة من المجوس , لأنهم لا يحرصون على إدخال الغرباء في دينهم القومي. وكانت للمجوس في عبادتهم للنار لها آداب وشرائع دقيقة داخل المعابد، أما خارجها فكان أتباعها أحراراً يسيرون على هواهم لا فرق بينهم وبين من لا دين له.(79)

---

78) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 31 ، الندوي ، السيرة النبوية ، ص 23

79) كرايستنسن ، إيران في عهد الساسانيين ، ص 155 ، الندوي ، السيرة النبوية ، ص 27 .

وكان للصابئة انتشار محدود في العراق وحرّان , وقد انتشرت لفظة (صبأ) بمعنى الخروج من الدين في مكة والطائف حيث أطلقها المشركون على المسلمين لخروجهم من الشرك إلى الإسلام . وأصل هذا المذهب من مشركي الصابئة، وهم قوم إبراهيم الخليل ؛الذين ناظرهم فطلبوا تحريقه، وهو مذهب قديم في العالم وأهله طوائف شتى: فمنهم عباد الشمس زعموا أنها ملك من الملائكة السفلية كلها عندهم منها، وهي عندهم ملك الفلك، فتستحق التعظيم والسجود والدعاء ومن شريعتهم في عبادتها أنهم اتخذوا لها صنما بيده جوهر على لون النار، وله بيت خاص قد بنوه باسمه، وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع، وله سدنة وقوام وحجبة. وهم إذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها، وإذا غربت. وإذا توسطت الفلك، ولهذا نهى النبي ف عن تحري الصلاة في هذه الأوقات، قطعا لمشابهة الكفار ظاهرا، وسدا لذريعة الشرك وعبادة الأصنام.(80) بعد هذا العرض يتضح لنا أن العالم قبيل بعثة الحبيب محمد ف كان في ضلالة عمياء، وجاهلية جهلاء، والعالم يموج بألوان مختلفة من الشرك والظلم والتخلف والانحدار والبعد عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وفي صدارة العالم دولتان فقدتا مقومات البقاء، وانحدرتا إلى مستوى البهائم العجماء، فالفرس مجوس يعبدون النار، ويِحلون نكاح المحارم،

80) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي ،مختصر سيرة الرسول ف، 1 / 44

ويغرقون في لُجِّيَ من الخرافات والروم حرفت المسيحية، واعتنقت خرافة الثالوث، وعقيدة الصلب والفداء وباتت مُخترقة من عدة وثنيات أفلحت في إضلالها، ولما كان الأمر كذلك لم تكن القوتان الكبيرتان في العالم آنذاك قادرتين على توجيه البشرية نحو دين صحيح، ولم تكونا مؤهلتين لحمل رسالة عالمية تخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن ظلم العباد إلى عدل الواحد الديان. ومن وراء هؤلاء يهود غضب الله عليهم لضياع الدين بينهم، واتخاذهم أحبارهم أرباباً من دون الله ، يحلون لهم ما حرم ويحرمون ما أحل، وهنود يُطبقون على عبادة العجول والأبقار، ويونان قد مسختهم الأساطير الكلامية والفلسفات المنطقية، وصدتهم عن سبيل الهدى وديانات أخرى كثيرة تنّشر هنا وهناك في أرجاء المعمورة، وتتشابه في أوصاف التخبط والانحلال والاضطراب والحيرة وكان سبب شقاء هذه الحضارات المزعومة، والمدنيات المحرومة قيامها على أسس مادية فقط دون أن يكون لها أي تعلق بنور الوحي الإلهي، لا جرم أنْ نظر الله لأي أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا أهل الكتاب،كما قال النبي ف وهذه البقايا تتمثل في أفراد أبت أن تنزلق في أوحال الشرك وظلت ثابتة على منهج التوحيد منتظرة خروج نبي جديد بشرت به أنبياؤهم، وتعلقت به أحلامهم. ولم يكن العرب أحسن حالاً من هذه الأمم،

فقد بدّل لهم عمرو بن لُحي الخزاعي ديانة إبراهيم الخليل التي كانوا يدينون بها، ومن ثم نُشر الشرك بين أهل مكة وخارجها، حيث كان أهل الحجاز أتباعاً لمكة لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم وبانتشار الوثنية بين العرب كثرة الخرافات الدينية التي أثرت بدورها في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية تأثيراً بالغاً.

والحقيقة أن جزيرة العرب كانت في عزلة عن تلك الصراعات والضلالات الحضارية والانحرافات، وذلك بسبب بعدها عن المدنية وحياة الترف، مما قلل وسائل الانحلال الخلقي والطغيان العسكري والفلسفي في أرجائها، فهي – وبالرغم مما كانت عليه من انحراف- كانت أقرب إلى الفطرة الإنسانية ، وأدعى لقبول الدين الحق، إضافة إلى ما كان يتحلى به أهلها من نزعات حميدة كالنجدة والكرم، والعفة والإباء، والأمانة والوفاء. هذا إلى جانب موقع جزيرة العرب المميز؛ إذ كان موقعها الجغرافي وسطاً بين تلك الأمم الغارقة التائهة، فهذا الواقع والموقع جعلها مؤهلة لنشر الخير وحمله إلى جميع الشعوب بسهولة ويسر. وبهذا تجلت الحكمة الإلهية في اختيار العرب وجزيرتهم مهداً ل لإسلام، إذ كانت بيئة أميّة لم تتعقد مناهجها الفكرية بشيء من الفلسفات المنحرفة، بل كانت أقرب لقبول الحق، والإذعان له، إضافة إلى أن اختيار جزيرة العرب مهداً للإسلام فيه دفع لما قد يتبادر إلى الأذهان من أنّ الدعوة نتيجة تجارب حضارية أو أفكار فلسفية.

ناهيك عن وجود البيت العتيق، الذي جعله الله أول بيت للعبادة، ومثابة للناس وأمنا، واللغة العربية وما تمتاز به، وهي لغة أهل الجزيرة ولا بد من الإشارة إلى أن الله اختار العرب وفضلهم لتكون الرسالة فيهم ابتداء وهذا تكليف أكثر مما هو تشريف؛ حيث إن من نزل عليه الوحي ابتداء مكلف بنشره وأخذه بقوة، وليس هذا أيضاً تفرقة بين العرب وغيرهم بل الكل لآدم وآدم من تراب، وأكرم الناس أتقاهم لله، ولهذا كان في الإسلام بلال الحبشي، وسلمان الفارسي وصهيب الرومي ...الخ.

لذلك كله وغيره كان العرب أنسب قوم يكون بينهم النبي الخاتم، وكانت جزيرتهم أفضل مكان لتلقي آخر الرسالات السماوية، فالحمد لله الذي أكرم العرب بهذا الدين العظيم، وشرّف جزيرتهم، فجعلها مهبط الوحي المبين.

أهم الأحداث قبيل مولد الحبيب محمد ف

اشتملت كتب السيرة والتاريخ علي أحداث عظيمة وقعت قبل مولد الرسولف لا يمكن تجاهلها هذه الأحداث كانت بمثابة مقدمات لمولده ف ، من هذه الأحداث : حفر بئر زمزم ، وقصة أصحاب الفيل .

أولا : حفر بئر زمزم :

ذكرنا سابقا أنه منذ أن استطاع الزعيم القرشي قصي بن كلاب أحد أحفاد إسماعيل ؛أن يعيد نفوذ أجداده القديم وسلطانهم علي مكة بعد أن تمكن من هزيمة الخزاعيون والانتصار عليهم ـ وهذا الزعيم هو الجد الرابع للرسولف ومنذ ذلك الحين و قصي يتمتع بالمكانة العظمي بين أهل مكة ، وإلى جوار ذلك المناصب الدينية مثل "السقاية"، والمقصود بالسقاية: تدبير الماء وحمله من آبار مكة المجاورة بالمزاود "القِرَب" ووضعه في أحواض لسقاية الحجاج، وكذلك كانت لقصي "الحجابة" "السدانة"، ويقصد بها حفظ مفاتيح الكعبة لا يفتحهاإلا هو، ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه،وجمع قصي في شخصه كل الوظائف الرئيسية -دينية كانت أم سياسية- فكان بذلك يعتبر وكأنه ملك العرب ورئيسهم الديني الأعلى، وقد أضفى ذلك على قبيلة قريش مجدًا وجاهًا عظيمين.

وحين أسن قصي عهد بالمناصب كلها إلى ابنه عبد الدار ولم تتحدث المصادر عن نشاط عبد الدار ولا عن أثره في مكة، ولا بد أنه سار على نهج أبيه، ولكن يبدو أنه لم يكن على جانب كبير من المقدرة لا هو ولا أحد من بنيه؛ الأمر الذي جعل بني عمهم عبد مناف ينازعونهم زعامة مكة ويرون أنهم أحق بها منهم لشرفهم وفضلهم(81).

وقد أدى هذا التنازع إلى قيام حلفي المطيبين والأحلاف وكادت الحرب تقع بين بطون قريش ، ثم اقتسمت المناصب؛ فآل لبني عبد مناف الرفادة والسقاية، وهما أهم وظيفتين في مكة لارتباطهما بالحج ووفود الحجاج إلى مكة من قبائل العرب المختلفة. الأمر الذي كانت مكة تعتمد عليه في حياتها الاقتصادية. وقد وكل أمر هاتين الوظيفتين إلى هاشم بن عبد مناف الذي يبدو أنه كان واسع الثروة جم النشاط(82)؛ فقد نالت مكة على يديه هو وإخوته تقدمًا كبيراَ، وبعد أن كانت تجارتها مقصورة على التجارة الداخلية مرتبطة بالحرم(83)؛ فتح لها هاشم وإخوته مجال التجارة الخارجية؛ فقد رحلوا إلى الشام وإلى اليمن وإلى الحبشة وإلى العراق، وقاموا باتصالات قوية مع حكام هذه المناطق أدت إلى عقد معاهدات تجارية،

---

81) طبقات ابن سعد،1/ 50، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، 1 / 118

82)ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1/ 146-147، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، 1 / 118

83) أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، 1 / 118

فقد أخذ من الروم عهدًا بالسماح لتجار قريش أن يدخلوا الشام وبلاد الدولة الرومية في سلام، وكذلك أخذ إخوته المطلب وعبد شمس ونوفل عهودًا مماثلة من الأكاسرة والنجاشي والحميريين. وبذلك بدأت قريش تسيطر شيئًا فشيئًا على التبادل التجاري بين الشمال والجنوب. وقد قام هاشم بتنظيم رحلات القوافل إلى الجنوب شتاء وإلى الشمال صيفًا. وقد عرف هذا النظام برحلتي الشتاء والصيف(84), وإلى هاتين الرحلتين وأثرهما يشير القرآن الكريم:

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (4) [سورة قريش]

كما وضع هاشم نظامًا لتأمين مرور القوافل بين القبائل العربية، وذلك بإشراك زعماء القبائل في قوافله؛ فيحمل لهم بضائعهم دون أن يتحملوا في نقلها شيئًا, وبذلك اتسعت تجارة قريش وعظمت ثروتها وأصبح هاشم بن عبد مناف زعيمًا لمكة كلها، وإن لم تجتمع له كل المناصب كما كان الحال عند جده قصي. لكن موته المبكر حرم مكة من جهود هذا الزعيم المفكر النشيط، وقام إخوته من بعده على تدعيم تجارة مكة الخارجية؛ لكنه لم يكن لأحدهم من المكانة ما كان لهاشم.(85)

84) ابن هشام ، السيرة النبوية،1/ 137، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، 1 / 119

85) ابن هشام ، السيرة النبوية،1/ 137، أحمد إبراهيم الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول 1/ 119

وبعد أن هلك هاشم بغزة من أرض الشام تاجرا، ولي السقاية والرفادة من بعده أخيه المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم وكان ذا شرف في القوم وفضل، وكانت قريش تسميه "الفياض" لسماحته. ثم هلك المطلب ثم ولي ابن أخيه عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب، فأقامهما للناس وأقام لقومه ما أقام آباؤه، وشرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه. كان عبد المطلب منذ ولي شرف السقاية لوفود الحجيج إلى البيت العتيق، يشغله هم التفكير فيما يتجشم ويتجشمون في الموسم،من شح الماء في الوادي الأجرد غير ذي الزرع.

ثم إن عبد المطلب أتي في المنام وأمر بحفر زمزم، وذلك لأن الجرهمي عمرو بن الحارث لما أحدث قومه بحرم الله وقيض الله من أخرجهم من مكة فعمد عمرو إلى نفائس الكعبة فجعلها في زمزم وبالغ في طمها، وفر إلى اليمن. فأتي عبد المطلب في المنام وأمر بحفرها، ووصف له موضعها بعلامات وأمارات: فعن علي بن أبي طالب - ا- قال: (قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال لي: احفر طيبة(86) قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني. قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برّة(87)، قال: قلت وما برّة؟ قال: ثم ذهب عني.

86) طيبة: مشتقة من الطيب، وبه سميت المدينة.

87) برة: مشتقة من البر، والبر: هو الخير والطهارة.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة(88). قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه فجائني فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال لا تنزف أبداً ولا تذم(89)، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم(90)، عند قرية النمل(91).

قال: فلما بين شأنها، ودلّ على موضعها، وعرف أنه قد صدقت، غدا بمعوله(92) ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطيّ(93) كبّر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته فقاموا إليه فقالوا: ياعبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم. قالوا له: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم قال: نعم، وكانت بأشراف الشام.

---

88) المضنونة:الغالية النفيسة التي يضن بمثلها، أي يُبخل.
89) لا تنزف: أي لايفرغ ماؤها ولا يلحق قعرها.
90) الغراب الأعصم في ساقيه بياض.
91) قرية النمل: المكان الذي يجتمع فيه النمل.
92) المعول: الفأس.
93) الطي: حافة البئر.

فركب عبد المطب ومعه نفر من بني أمية، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذا ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من كانوا معهم فأبوا عليهم وقالوا: إنا بمفازة(94) وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كلّ رجل منكم حفرته لنفسه بمالكم الآن من القوة فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واره، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نِعمَ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشاً. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا ضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا. فارتحلوا حتى إذا بعث(95) عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبّر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش -وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال- فقال هَلُّموا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا، واستقوا كلهم،

94) المفازة : جمعها مفاوز: القفار.

95) بعث راحلته: اقامها من بروكها.

ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشد. فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوّ بينه وبين زمزم). قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم(96)

وفي رواية أخري أن عبد المطلب لما حفر زمزم وجد فيها غزالين من ذهب وأدراعا وأسيافا، فقالت قريش: "يا عبد المطلب، لنا معك في هذا شرك وحق" قال: "لا، وهلم إلى أمر نصف بيني وبينكم، تضرب عليها بالقداح"، قالوا: "وكيف نصنع؟" قال: "أجعل للكعبة قدحين ولي قدحين ولكم قدحين، فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له". فقالوا: "أنصفت". فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوا صاحب القداح الذي يضرب عليها عند هبل، وقام عبد المطلب يدعو،وضرب صاحب القداح فخرج الأصفران على الغزالين، وخرج الأسودان على الأسياف والأدرع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش. فضرب عبد المطلب الأسياف بابا لكعبة وضرب في الباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حليت به الكعبة فيما يزعمون. ثم أن عبد المطلب جعل سقاية زمزم للناس، فنذر لله لئن آتاه الله عشرة من الولد يمنعونه لينحرن أحدهم عند الكعبة،

---

96) السيرة النبوية لابن هشام، 1/142-155 .

فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم يمنعونه جمعهم فأخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء، فأطاعوه، وقالوا: "كيف نصنع؟" قال: "ليأخذ كل رجل منكم قدحا ثم يكتب فيه اسمه ثم أتوني". ففعلوا. فدخل بهم على هبل فقال عبد المطلب لصاحب القداح: اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره، فأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه، وكان عبد الله بنعبد المطلب أحب ولده إليه، فكان يرى أن السهم إذا أخطأ فقد أشوى(97): فلما أخذ صاحب القداح القداح ليضرب بها قام عبد المطلب عند هبل يدعو الله، ثم ضرب صاحب القداح فخرج على عبد الله، فأخذ بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل على إساف ونائلة ليذبحه(98)، فقامت إليه قريش من أنديتها فمنعوه، وقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم -وكان عبد الله ابن أخت القوم-: "والله لا تذبحه حتى تعذر فيه أبدا، فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه" ثم أتوا عرافة فسألوها. فقالت: "كم الدية فيكم؟" قالوا: "عشرة من الإبل". وكانت كذلك. قالت: "فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح،

97) رمى فأشوى: أي لم يصب الهدف
98) إساف ونائلة: صنمان كانا عند الصفا والمروة.

فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربك ونجا صاحبكم". فقام عبد المطلب يدعو الله، ثم قربوا عبد الله وقربوا عشرا من الإبل، وعبد المطلب عند هبل يدعو الله، فضربوا
فخرج القدح على عبد الله، فلم يزالوا يزيدون عشرا عشرا والقدح يخرج على عبد الله إلى أن بلغوا مائة من الإبل، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل، ثم أعادوا الثانية فخرج على الإبل، ثم أعادوا الثالثة فضربوا فخرج على الإبل فنحرت وتركت لا يصد عنها إنسان ولا يمنع، فجرت الدية في قريش والعرب مائة من الإبل، وأقرها رسول الله ف في الإسلام.(99)
وروي عن النبي ف أنه قال: "أنا ابن الذبيحين" يعني إسماعيل وأباهعبد الله. وروى الحاكم في المستدرك أن أعرابيا جاء إلى النبي ف يسأله فقال: "يا ابن الذبيحين" فتبسم النبي ف ولم ينكر عليه .(100)

---

99) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، مختصر سيرة الرسول ف،1 / 27 -29 .
100) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، مختصر سيرة الرسول ف،1 / 29 .

ثانيا : عام الفيل والطير الأبابيل:

هذه الحادثة ثابتة بالقرآن الكريم والسنّة النبوية، وأتت تفاصيلها في كتب السير والتاريخ، وذكرها المفسرون في كتبهم.

قال تعالى:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (5) [سورة الفِيل]

ويذكر الرواة في ذلك أن الأحباش -وكانوا يدينون بالمسيحية- أرادوا أن ينشروا هذا الدين في جزيرة العرب بعد أن استولوا على اليمن، وخصوصًا لما رأوه من تقديس العرب لمكة وللمسجد الحرام وتقديمهم القرابين والنذور والهدايا والهبات إلى سدنة المسجد والقائمين بأمره..

وقد بدأ القائد الحبشي في بلاد اليمن -ويسمى أبرهة الأشرم- ببناء كنيسة سماها القُلَّيْس (101)وبذل لها ما استطاعه من العناية. حتى إنه نقل إليها من قصر بلقيس أعمدة من الرخام المجزع، والحجارة المنقوشة بالذهب،

101) سميت القلَّيْس لارتفاع بنائها وعلوها، ومنه القلانس لأنها في أعلى الرءوس...

ونصب فيها صلبانًا من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والأبنوس، ودعا الناس إلى الحج إليها(102).

فغضب العرب وثار رجل من بني مالك بن كنانة وأقسم ليعبثن بهذه الكنيسة، وقدم إلى اليمن ودخل الكنيسة كأنه متعبد حتى إذا جاء الليل وخلا المكان قام يعبث بأثاث الكنيسة ويلطخ جدرانها بالقاذورات(103)، ولما علم أبرهةفي الصباح بما أصاب كنيسته وعرف أن أعرابيّا كان يبيت بها وأنه المتهم بالعبث ببنائه المقدس، أقسم ليهدمن الكعبة، وجهز لذلك العدة والعديد(104) والبأس الشديد.. وأقبل جيش الحبشة من اليمن فأشرف على مكة بعد أن تخطى إليها التلال والنجاد، والهضاب والوهاد، والصحراء القاسية المترامية، وبعد أن كاد يضلفي شعاب الجزيرة الشائكة ومسالكها المشتبكة، ثم استقر بمكان قريب من مكة

102) سيرة ابن هشام" 1/ 44، "دلائل النبوة" للبيهقي 1/ 117، "الروض الأنف" للسهيلي 1/ 63، "البداية والنهاية"1/ 170، "المواهب اللدنية" 1/ 101

103) وفي أكثر الروايات أنه قعد فقضى حاجته، فأحدث وبال، وهذا القول مروي عن ابن عباس وغيره، وذكره من قدمنا ذكرهم، وهو الذي عليه الأكثر.

وقيل: أجّجت فتية من العرب نارًا قرب الكنيسة، فحملتها الريح، وكان في عمارة القليس خشب مموه فأحرقته، وهذا القول منقول عن مجاهد.

وقيل إن نفيلا الخثعمي كان يتعرض لأبرهة بالمكروه، ثم إنه جاء ليلة بعذره فلطخ بها قبلة الكنيسة، وألقى فيها جيفًا.

104) فقيل: إنه بلغ عددهم ستين ألفًا، محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 19

يقال له: "المغمس"(105) وأرسل قائد الجيش رسولًا من قبله إلى مكة يدعى "حناطة الحميري"(106) فقال له: سل عن سيد أهل هذه البلاد وشريفها، ثم قل له: إن الملك لم يأت لحربكم، وإنما جاء لهدم هذا البيت. فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب، فلا حاجة له في دمائكم، فإنه هو لم يرد الحرب فأت إليّ به.

فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم، فجاءه فأخبره بما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: "والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم -؛- فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخل بينه وبينه فو الله ما عندنا دفع عنه". فقال حناطة: فانطلق معي إليه، فإنه قد أمرني بذلك.

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر ووقف بباب أبرهة، فقيل لأبرهة: إن عبد المطلب ببابك، فقال: من هو عبد المطلب؟ قيل: إنه سيد قريش وصاحب عير مكة، وهو الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال. فأذن له أبرهة.

105) وهذا الموقع يبعد عن مكة نحو ستة أميال في طريق الطائف

106) وقيل أنه أرسل حناطة بعد أن كان بعث من المغمس رجلا من الحبشة، يقال له الأسود، على خيل حتى انتهى إلى مكة، فساق أموالًا وإبلًا من تهامة وغيرهم، فيها مائتي بعير لعبد المطلب جد النبي -صلى الله عليه وسلم- وكان يومها كبير قريش وسيدها.

وكان عبد المطلب وسيمًا جميلًا شديد الهيبة والوقار. فلما رآه أبرهة، أجلَّه وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه. (107) فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: سله عن حاجته: فسأل الترجمان؟ فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي. فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتًا، هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟

فقال له عبد المطلب: "إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه ويحميه".

فرد أبرهة قائلا: ما كان ليمتنع مني.

فأجابه: أنت وذلك.. فرد أبرهة على عبد المطلب المائتي بعير التي أصابها.. وانطلق عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر، ثم تعلق بحلقة الكعبة وأستارها في ضراعة الخائف الوجل وإنابة العائذ المستغيث.

---

107) محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 19

وأخذ يقول:

لا هَمّ إن العبد يمـ نع رحله فامنع حلالك (108)

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدًا محالك

هم جردوا لك جمعهم والفيل كي يسبو عيالك

عَمَدُوا حِماك بكيدهم جهلاً وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وقبـ ـلتنا فأمر ما بدا لك

108) حلالك" بكسر الحاء المهملة، والحلال جمع حلة وهي جماعة البيوت. فكأنه أراد البيت وما حوله.وقوله "لا همّ" أصلها: "اللهم" والعرب تحذف الألف واللام.

ثم طاف بالبيت منشدًا والناس معه يرددون:

يا رب لا أرجو لهم سواكا   رب فامنع منهم حماكا

امنعهموا أن يخربوا قراكا   إن عدوّ البيت من عاداكا(109)

وهكذا لجأ عبد المطلب ولجأت معه قريش إلى الله يطلبون عونه وحمايته ثم خرجوا من مكة لكي يتحرزوا في شعف الجبال والشعاب، وينتظرون عدل الله مع هؤلاء الطغاة الظالمين..

وتحرك بعد ذلك جيش الأحباش مدلا بعظمته وكبريائه، يتقدمه الفيلة بشكلها المهيب المخيف الذي لم تألفه العرب في حروبها، وكان عددهم ثلاثة عشر فيلًا توجهت جميعها في طريقها إلى الكعبة ما عدا الفيل الأكبر منها فإنه ظل جامدًا في مكانه، فإذا وجهوه إلى اليمن أسرع وهرول، وإذا وجهوه إلى الكعبة وقف ولم يتحول، وكأن الله قد ألهم ذلك الحيوان الأعجم بما تخبئه الحدثان،

---

109) الصالحي ، سبل الهدى والرشاد ، 1/ 254، محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 20

وما ينتظر ذلك الجيش المعتدي من خسف ونكال وهوان... وما كان مثل هذا الجيش القوي ليغلب أو يتراجع لولا قدرة القوي القاهر التي تجلت في هذه الآية الكبرى الباقية على الدهر،

إذ أرسل الله إليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه -أمثال الحمص والعدس- لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك وليس كلهم أصابت.

وذعر الأحباش واستولى عليهم الرعب والذهول فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ويسألوا عن الطريق إلى اليمن، فقال أعرابي(110) رآهم في هذه الحيرة، بعدما أنزل الله عليهم من نقمته:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

وجعلوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، وكلما سقطت أنملة خرج وراءها الدم والقيح الكثير، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطير، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يقولون (111).

---

110) هو نفيل بن حبيب، فيما ذكر ابن إسحاق وغيره.

111) ابن كثير ، السيرة النبوية ، 1 / 30 – 37 ، أبو حاتم البستي ، السيرة النبوية ، ص 34 – 39 .

ومع شهرة هذه الحكاية هكذا، فإنها لم تأت من طريق متصل يعتمد عليه ويصح به النقل. على هذا التفصيل، وإن كان الأصل صحيحًا بلا ريب بدليل القرآن.

وهكذا حمى الله بيته المحرم من عدوان الظالمين؛ لأنه البيت العتيق الذي كان مصدر الهدى والنور منذ رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- فلما تغيرت الأحوال وعبد العرب الأصنام، وتركوا النور، وتخبطوا في الظلام، شاء الله ألا يطول عليهم الأمد في الظلام، وأراد بهم الخير فحمى هذا البيت من عدوان الأحباش ليعود إليه مجده التليد، ويتلألأ النور فيه من جديد، على يدي محمد بن عبد الله -ف - نبي الإسلام الذي ولد في هذا العام، ثم بعثه الله بعد ذلك هداية ورحمة للعالمين. (112)

112) محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 24

من الميلاد حتى البعثة

نسب النبي ف

لقد اختار الله تعالى محمدًا ف ليكون النبي الخاتم الذي بشر به الأنبياء السابقون عليهم السلام . فقد كان رسول الله ف ذا نسب شريف في قومه ،إذ إنه كان من أعرق قبيلة عربية وهي قريش ومن أشرف بيت في تلك القبيلة ، وهو بيت بني هاشم ، كما قال ف : « إن الله اصطفى كنانة من بني آدم ، واصطفى قريشًا من كنانة ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفاني من بني هاشم ، فأنا خيار من خيار »(113) .

وكان لهذا الاصطفاء أهمية ، إذ كانت الأنظار تحيط ببيت النبي ف والمتمثل في هاشم الجد الأعلى للنبي ف لذا حفظت سيرة ذلك البيت وأحداثه التاريخية منذ أن انتقلت الزعامة إلى هاشم حيث تولى سقاية الحاج ورفادتهم فأصبح قبلة وفخر قريش .

ولقد اشتهرت العرب بالاهتمام بالأنساب ومعرفتها متصلة متسلسلة بدقة تامة ، لذا حفظ التاريخ كثيراً من التراث النسبي في مؤلفات كثيرة تذكر أنساب القبائل وفروعها ، ومما حفظته المصادر ، نسب النبي ف ، إذ اتفقت جميع المصادر على سلسلة نسببه ف بلا خلاف يذكر رواية وكتابة ، فنسبه ف هو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر

113) أخرجه الحاكم (97/4 ، رقم 6996) . وأخرجه أيضًـا : العقيلى (388/4 ترجمة 2005 يزيد بن عوانة الكلبى) وقال: لا يتابع عليه .

وهو الملقب بقريش ، وإليه تنسب القبيلة - ابن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد ابن عدنان .

إلى هنا معلوم الصحة . وما فوق عدنان مختلف فيه . ولا خلاف أن عدنان من ولد إسماعيل ؛(114).

لقد كان - ومازال - شرف النسب له المكانة في النفوس، لأن ذا النسب الرفيع لا تنكر عليه الصدارة، نبوة كانت أو ملكاً، وينكر ذلك على وضيع النسب فيأنف الكثير من الأنضواء تحت لوائه، ولما كان محمد - ف - يعد للنبوة هيأ الله تعالى له شرف النسب ليكون مساعداً له على التفاف الناس حوله.

ومما تبين يتضح لنا من نسبه الشريف، دلالة واضحة على أن الله سبحانه وتعالى ميز العرب على سائر الناس، وفضل قريشاً على سائر القبائل الأخرى ومقتضى محبة رسول الله - ف -، محبة القوم الذين ظهر فيهم والقبيلة التي ولد فيها، لامن حيث الأفراد والجنس بل من حيث الحقيقة المجردة ذلك لأن الحقيقة العربية القرشية، قد شرف كل منها - ولا ريب - بانتساب رسول الله - ف - إليها، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوء بكل من قد انحرف من العرب أو القرشيين، عن صراط الله عز وجل،

---

114) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي قبل (288/4) رقم 3851 ، عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، مختصر سيرة الرسول ف،1 / 15 .

وانحط عن مستوى الكرامة الإسلامية التي اختارها الله لعباده، لأن هذا الانحراف أو الانحطاط من شأنه أن يؤدي بما كان من نسبة بينه وبين الرسول - ف - ويلغيها من الاعتبار(115).

زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب :

كان عبد الله أحسن أولاد عبد المطلب وأعفهم وأحبهم إليه، وبعد أن نجاه الله من الذبح وفدي بمائة من الأبل ، وأراد عبد المطلب أن يزوجه فاختار له آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وهي يومئذ تعد أفضل امرأة في قريش نسبَا وموضعًا، وأبوها سيد بني زهرة نسبَا وشرفًا، فزوجه بها، فبني بهاعبد الله في مكة، وبعد قليل أرسله عبد المطلب إلى المدينة يمتار لهم تمرَا، فمات بها وقيل : بل خرج تاجرَا إلى الشام، فأقبل في عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفي بها، ودفن في دار النابغة الجعدي عند أخوالِه بني عَديّ بن النَجَّار، وله إذ ذاك خمس وعشرون سنة، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ف ، وبه يقول أكثر المؤرخين، وقيل : بل توفي بعد مولده بشهرين أو أكثر . ولما بلغ نعيه إلى مكة رثته آمنة بأروع المراثي، قالت :

115) البوطي ، فقه السنة ، ص45، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 54

عَفَا جانبُ البطحاءِ من ابن هاشم وجاور لَحْدًا خارجًا في الغَمَاغِم

دَعَتْه المنايا دعوة فأجابها وما تركتْ في الناس مثل ابن هاشم

عشية راحوا يحملون سريره تَعَاوَرَهُ أصحابه في التزاحم

فإن تك غالته المنايا ورَيْبَها فقد كان مِعْطاءً كثير التراحم

وجميع ما خلفه عبد الله خمسة أجمال، وقطعة غنم، وجارية حبشية اسمها بركة وكنيتها أم أيمن، وهي حاضنة رسول الله ﷺ (116).

ميلاد الحبيب محمد ﷺ :

ولد الحبيب محمد ﷺ بشعب بني هاشم بمكة في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، لأول عام من حادثة الفيل، ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان، ويوافق ذلك عشرين أو اثنين وعشرين من شهر أبريل سنة 571 م.

116) عز الدين بن جماعة الكتاني ، المختصر الكبير فى سيرة الرسول ، ص 6 ، محمد بن عبد الوهاب ، مختصر السيرة ،تحقيق عبد العزيز بن زيد الرومي ، د . محمد بلتاجي ، د . سيد حجاب ، نشر مطابع الرياض ، الرياض ، ص155 ، صفي الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص 50

ولما ولد ف خرجت به ثويبة الأسلمية خادمة أبي لهب -عم النبي - ف - تهرول إلى سيدها أبي لهب، ووجهها ينطق بالسعادة، وما كادت تصل إليه حتى همست له بالبشرى، فتهلل وجهه، وقال لها من فرط سروره:

اذهبي فأنت حرة! وأسرع عبد المطلب إلى بيت ابنه عبد الله ثم خرج حاملا الوليد الجديد، ودخل به الكعبة مسروراً كأنه يحمل على يديه كلَّ نعيم الدنيا، وأخذ يضمه إلى صدره ويقبله في حنان بالغ، ويشكر الله ويدعوه، وألهمه الله أن يطلق على حفيده اسم محمد، ولم يكن هذا الاسم شائعا في العرب من قبل وخَتَنَه يوم سابعه كما كان العرب يفعلون.(117)

وروى الحاكم وصححه البيهقي عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ف أنهم قالوا ؟ يا رسول الله أخبرنا عن نفسك،قال: " أنا دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام ".(118)

---

117) محمد الخضري ، تاريخ الدولة العربية ، ص 61 ، ابرهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، ص47، عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، مختصر سيرة الرسول ،1 / 17 .

118) رواه أحمد (262/5)؛ الحاكم (600/2)، مجمع الزوائد (222/8) وإسناد احمد حسن وله شواهد تقويه، وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

ودعوة إبراهيم ؛هي قوله رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [سورة البقرة: الآية 129]

وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله عز وجل حاكياً عن المسيح ؛:

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [سورة الصف: الآية 5]

وقوله:(ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام) قال ابن رجب: (وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى مايجيئ بهمن النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزال به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى:

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ [سورة المائدة: الآية 16]

وروى ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن آمنة قالت: لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته.(119)][

119) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 1 / 329

مرضعاته ف

وأول من أرضعته من المراضع ـ وذلك بعد أمه ف بأسبوع ـ ثُوَيْبَة مولاة أبي لهب بلبن ابن لها يقال له : مَسْرَوح، وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب، وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي .(120)

وكانت العادة عند الحاضرين من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم ابتعاداً لهم عن أمراض الحواضر؛ ولتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، ويتقنوا اللسان العربي في مهدهم، فالتمس عبد المطلب لرسول الله ف المراضع واسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، وهي حليمة بنت أبي ذؤيب عبد الله بن الحارث، وزوجها الحارث ابن عبد العزى المكنى بأبي كبشة من نفس القبيلة .

وإخوته ف هناك من الرضاعة : عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة بنت الحارث [وهي الشيماء؛ لقب غلب على اسمها] وكانت تحضن رسول الله ف ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ف وكان عمه حمزة بن عبد المطلب مسترضعًا في بني سعد بن بكر فأرضعت أمه رسول الله ف يومًا وهو عند أمه حليمة،فكان حمزة رضيع رسول الله ف من جهتين، من جهة ثويبة ومن جهة السعدية .(121)

---

120) عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، مختصر سيرة الرسول ،1 / 17 .
121) ابن القيم ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، 1 / 19

ورأت حليمة من بركته ف ما قضت منه العجب، وهذا ما أورده المؤرخون فعن عبدالله بن جعفر م: قال: (لما ولد رسول الله - ف - قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسون الرضعاء بمكة قالت حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي، قمراء(122)، ومعي زوجيالحارث بن عبد العزى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت(123) أتاننا، ومعي بالركب شارف(124) والله ماتبض(125) بقطرة لبن، في سنة شهباء(126) قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعي ابن لي، والله ماينام ليلنا، وما أحد في يدي شيئاً أعلله به، إلا أنا نرجو الغيث وكانت لنا غنم، فنحن نرجوها.

فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عرض عليها رسول الله - ف - فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يكرم الظئر، ويحسن إليها الوالد فقلنا: ما عسى أن تضع بنا أمه أو عمه أو جده، فكلٌّ صواحبي أخذ رضيعاً، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه، وأخذته، والله ما أخذته إلا إني لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لأخذنَّ هذا اليتيم من بني عبد المطلب ، فعسى الله أن ينفعنا به،ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئاً، فقال: قد أصبت. قالت: فأخذته، فأتيت به الرّحْلَ، فو الله ما هو إلا أن أتيت به الرّحْلَ

122) قمراء: القمرة لون البياض الى الحمرة.
123) وأدمت : حدثت في ركبها جروح دامية لاصطكاكها.
124) الشارف: الناقة المسنة.
125) تبض: لا ترشح قطرة لبن.
126) شهباء: سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

فأمسيت أقبل ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل(127)، فحلبها، فأرواني وروي، فقال: ياحليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة(128)، ولقد أعطى الله عليها مالم نتمنَّ، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء فحملته معي، فو الذي نفسي حليمة بيده لقطعَتْ الركب(129) حتى إن النسوة ليقلن : أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها؟ قالت، فقلت: والله حملت عليه غلاماً مباركاً. قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيراً، حتى قدمنا والبلاد سنةٌ، ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يريحون، فتروح أغنام بني سعد جياعاً، وتروح غنمي بطاناً(130)، حفلاً(131)، فنحلب، ونشرب، فيقولون أما شأن غنم الحارث بن عبد العزى، وغنم حليمة تروح شباعاً حفلاً، وتروح غنمكم جياعاً. ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعاؤهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعاً كما كانت وترجع غنمي كما كانت.

---

127) حافل: كثير اللبن.
128) نسمة: نفس.
129) قطعت الركب: سبقت الركب.
130) بطانا: الممتلئة البطون.
131) حفلاً: كثيرات اللبن.

قالت: وكان يشب شباباً ما يشبه أحد من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: أي ظئر! والله ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباء(132) مكة وأسقامها، فدعيه نرجع به حتى تبرئيمن دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهراً ثلاثة أو أربعة فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بُهْم له(133)، إذ أتى أخوه يشتدّ، وأنا وأبوه في البدن، فقال: إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذاه وأضطجعاه، فشقّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه يشتدّ، فوجدناه قائماً، قد انتقع لونه(134)، فلما رآنا أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضممناه إلينا: مالك بأبي وأمي؟ فقال: أتاني رجلان وأضجعاني، فشقا بطني، ووضعا به شيئاً ثم رداه كما هو، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، إلحقي بأهله فرديه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه. قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قضى الله الرضاعة وسرّنا ما نرى وقلنا: نؤويه كما تحبون أحبّ إلينا، قال:

---

132) الوباء: المرض.

133) البهم: صغار الضأن والماعز.

134) امتقع لونه: تغير.

فقالت: إن لكما شأنا فأخبراني ما هو فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقال: كلا والله ، لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأنا أفلا أخبركما خبره، إني حملت به، فو الله ما حملت حملاً قط، كان أخف عليّ منه، ولا أ يسر منه، ثم أُريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل ببصرى أو قالت: قصور بصرى- ثم وضعته حين وضعته، فو الله ما وقع كما يقع الصبيان لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء فدعاه عنكما فقبضه وانطلقنا) . فرجعت به حليمة إلى قومها بعد أن زال الخوف من قلبها، وظل عندها حتى بلغ عمره خمس سنوات، ثم عاد إلى أمه في مكة.(135)

وذات يوم، خرجت السيدة آمنة ومعها طفلها محمد وخادمتها أم أيمن من مكة متوجهة إلى يثرب؛ لزيارة قبر زوجها عبد الله، وفاء له، وليعرف ولدها قبر أبيه، ويزور أخوال جده من بني النجار، وكان الجو شديد الحر، وتحملت أعباء هذه الرحلة الطويلة الشاقة، وظلت السيدة آمنة شهراَ في المدينة، وأثناء عودتها مرضت وماتت وهي في الطريق، في مكان يسمى الأبواء، فدفنت فيه، وعادت أم أيمن إلى مكة بالطفل محمد يتيمًا وحيدًا، فعاش مع جده عبد المطلب، وكان عمر محمد آنذاك ست سنوات.(136)

في كفالة جده

135) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 162 – 163 ، أبو يعلى في مجمع الزوائد (221/8)، السيرة النبوية بشرح الخشني: (214/1) من طريق ابن اسحاق وقد صرح ابن اسحاق بالسماع في رواية السيرة، قال الذهبي في السيرة النبوية، ص8: هذا حديث جيد الاسناد وله شواهد تقويها ولذلك فالحديث حسن لشواهده.

136) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 168 ، محمد الخضري ، محاضرات في تاريخ الدولة العربية ، 61

بعد وفاة السيدة آمنة عاش محمد - ف - في ظل كفالة جده عبد المطلب الذي امتلأ قلبه بحب محمد، فكان يؤثر أن يصحبه في مجالسه العامة، ويجلسه على فراشه بجوار الكعبة، قال ابن هشام : كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالًا له، فكان رسول الله ف يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأي ذلك منهم : دعوا ابني هذا فو الله إن له لشأنًا، ثم يجلس معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع . وكان جده يحبه حباً عظيماً وكان إذا أرسله في حاجة جاء بها وذات يوم أرسله في طلب إبل فاحتبس عليه فطاف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رب رد راكبي محمداً رده لي واصنع عندي يداً

فلما رجع النبي - ف - وجاء بالإبل فقال له: يابني: لقد حزنت عليك كالمرأة حزناً لا يفارقني أبداً(137).ولكن عبد المطلب فارق الحياة ومحمد ف في الثامنة من عمره.ورأي قبل وفاته أن يعهد به إلي شقيق أبيه عمه أبو طالب.(138)

137) أخرجه الطبراني في الكبير: 5524
138) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 169 ، محمد الخضري ، محاضرات في تاريخ الدولة العربية ، 61

في كنف عمه أبو طالب

وبالرغم من أن أبو طالب كان مقلاً في الرزق إلا أن أبو طالب نهض بحق ابن أخيه على أكمل وجه، ضمه إلى ولده وقدمه عليهم، واختصه بفضل احترام وتقدير. وظل فوق أربعين سنة يعز جانبه ويبسط عليه حمايته، ويصادق ويخاصم من أجله. ودرج محمد ـ ف ـ في بيت أبي طالب والسن تمضى به قدما إلى الوعي العميق بما حوله. فأصر على أن يشارك عمه هموم العيش، فعمل النبي - ف - برعي الغنم مساعدة منه لعمه،فلقد أخبر - ف - عن نفسه الكريمة وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة وهو غلام وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله - ف -: (ما بعث الله نبياً إلا رَعى الغنم فقال: أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال : وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط)(139).

وكان أبو طالب مقلا من المال فكان عياله إذا أكلوا جميعا أو فرادى لم يشبعوا وإذا أكل معهم النبي ف شبعوا فكان أبو طالب إذا أراد أن يغديهمأو يعشيهم يقول لهم كما أنتم حتى يأتي ابني فيأتي رسول الله ف فيأكل معهم فيفضلون من طعامهم وإن كان لبنا شرب رسول الله ف أولهم ثم تتناول العيال القعب (140)

139) البخاري، كتاب الاطعمة (488/9) رقم 2262. والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم.
140) أي القدح الذي من الخشب

فيشربون منه فيروون من عند آخرهم (141) من القعب الواحد وإن كان أحدهم ليشرب قعبا واحدا فيقول أبو طالب إنك لمبارك .

وكان الصبيان يصبحون شعثا رمصا (142) ويصبح رسول الله ف دهينا كحيلا .

قالت أم أيمن ـ وكانت تحضنه ـ ما رأيت رسول الله ف يشكو جوعا قط ولا عطشا لا في صغره ولا في كبره .

وكان ف يغد وإذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداء فيقول أنا شبعان أي في بعض الأوقات .

يستسقي بوجهه الغمام

واستسقى أبو طالب برسول الله ف قال جلهمة ابن عرفطة قدمت مكة وقريش في قحط فقائل منهم يقول اعتمدوا اللات والعزى وقائل منهم يقول اعتمدوا مناة الثالثة الأخرى فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأي أنى تؤفكون ـ أي كيف تصرفون عن الحق ـ وفيكم باقية إبراهيم وسلالة إسماعيل إ أي فكيف تعدلون عنه إلا ما لا يجدي قالوا كأنك عنيت أبا طالب قال أيها فقاموا بأجمعهم

141) أي جميعهم
142) الرمص: وسخ يجتمع في موق العين.

وقمت معهم فدققنا عليه بابه فخرج إلينا رجل حسن الوجه عليه إزار قد اتشح به فثاروا أي قاموا إليه فقالوا يا أبا طالب أقحط الوادي وأجدب العيال فهلم فاستسق لنا فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة (143) وفي رواية كأنه شمس دجن ـ أي ظلام ـ تجلت عنه سحابة قتماء (144) وحوله أغيلمة (145) فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ (146) بأضبعه (147) الغلام زاد في بعض الروايات وبصبصت الأغيلمة حوله أي فتحت أعينها وما في السماء قزعة أي قطعة من سحاب فأقبل السحاب من ههنا ومن ههنا واغدودق (148) الوادي وأخصب النادي والبادي .

وفي ذلك يقول أبو طالب من قصيدة يمدح بها النبي ف وشرف وكرم أكثر من ثمانين بيتا وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ** ثمال اليتامى عصمة للأرامل (149) . (150)

بحيرا الراهب

143) بدال مهلمة فجيم مضمومتين أي ظلمة

144) أي من القتام بالفتح وهو الغبار

145) جمع غلام

146) أي طاف

147) أضبع، يكنى به عن الضعيف.

148) أي كثر مطره وانفجر له

149) أي ملجأ وغياثا لليتامى ومانع الأرامل من الضياع والأرامل المساكين من النساء والرجال وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالا .

150) علي بن برهان الدين الحلبي ،السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، دار المعرفة ، بيروت ، 1،1400 / 190 ، محمد بن عبد الله بن يحي ابن سيد الناس،عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 1 / 59 ، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق : د . محمد كمال الدين عز الدين علي ،عالم الكتب ـ بيروت ـ الطبعة الأولى، 1417هـ، 1/ 110 .

ولما بلغ رسول الله ف اثنتي عشرة سنة خرج مع عمه أبي طالب في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا(151) على الراهب(152)، هبطوا فحلوا رحالهم(153)، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

فبينما هم يحلون رحالهم جعل الراهب يتخللهم(154) حتى جاء فأخذ بيد رسول الله - ف - قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ(155) ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبيّ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف(156) كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به، وكان هو في رعية الإبل(157) قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة(158) تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فئ الشجرة، فلما جلس مال فئ الشجرة(159) عليه، فقال: انظروا إلى فئ الشجرة مال عليه.

---

151) أشرفوا: طلعوا.
152) الرهب : زاهد النصارى.
153) حلو رحالهم: أي أنزولها وفتحوها.
154) يتخللهم : يمشي بينهم.
155) خر: سقط.
156) الغضروف: رأس لوح الكتف.
157) رعية الإبل: رعايتها.
158) عمامة : السحابة.
159) مال في الشجرة عليه: مال ظلها.

قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو يناشدهم(160) أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إذا عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبقى طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟

قالوا: إنما اخترنا خيره لك لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيكم وليه(161) ؟ قالوا: أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب(162).

حرب الفِجَار

وقعت هذه الحرب في سوق عُكاظ حرب بين قريش ـ ومعهم كنانة ـ وبين قَيْس عَيْلان، تعرف بحرب الفِجَار وسببها : أن أحد بني كنانة، واسمه البَرَّاض اغتال ثلاثة رجال من قيس عيلان، ووصل الخبر إلى عكاظ فثار الطرفان،

---

160) يناشدهم: يقسم عليهم.

161) ايكم وليه: قريبه.

162) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 2 / 140 ، عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ، مختصر سيرة الرسول ف،1 / 20 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 68

وكان قائد قريش وكنانة كلها حرب بن أمية؛ لمكانته فيهم سنا وشرفًا، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كادت الدائرة تدور على قيس . ثم تداعى بعض قريش إلى الصلح على أن يحصوا قتلى الفريقين، فمن وجد قتلاه أكثر أخذ دية الزائد . فاصطلحوا على ذلك، ووضعوا الحرب، وهدموا ما كان بينهم من العداوة والشر . وقد حضر هذه الحرب رسول الله ف ، وكان ينبل على عمومته؛ أي يجهز لهم النبل للرمي .

وسميت يوم الفجار بسبب ما استحل فيه من حرمات مكة التي كانت مقدسة عند العرب.

وقد قال - ف - عن تلك الحرب (كنت أُنبِّل على أعمامي). أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها(163).

وكان - ف - حينئذ ابن أربع عشرة أو خمس عشر سنة، وقيل ابن عشرين، ويرجح الأول أنه كان يجمع النبال، ويناولها لأعمامه، مما يدل على حداثة سنه.

163) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 2 / 152 ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1/221-224، السيرة الحلبية ، 1/127-129.

وبذلك اكتسب الجرأة والشجاعة، والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيراً ما تشبه حروب العرب تبدؤها، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم(164).

حلف الفضول :

وهو أشرف حلف (165) في العرب وكان عند منصرف قريش من حرب الفجار في ذي القعدة في شهر حرام وتداعت إليه قبائل من قريش : بنو هاشم، وبنو المطلب،وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جُدْعان التيمى؛ لسنِّه وشرفه، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله ف . وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة : (لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت) .وهذا الحلف روحه تنافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها، وسببه أن رجلاً من زبيد(166) قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل،

164) عبد الحميد البلالي،وقفات تربوية من السيرة النبوية، ص53 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 70

165) والحلف في الأصل اليمين والعهد وسمى العهد حلفا لأنهم يحلفون عند عقده .

166) زبيد: بلد باليمن.

ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحِجر والحَجَر

إن الحرام لم تمت كرامته ولا حرام لثوب الغادر الفجِر

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة وبنو تَيم بن مرة في دار عبد الله بن جُدْعان فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه ما بلّ بحرٌ صوفة، وما بقي جَبَلاً ثبير وحراء مكانهما. ثم مشوا إلى العاص بن وائل،

فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه. وسمّت قريش هذا الحلف حلف الفضول وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. (167)

ويعتبر حلف الفضول دلالة على أن الحياة مهما اسودت صحائفها، وكلحت شرورها، فلن تخلو من نفوس تهزها معاني النبل، وتستجيشها إلى النجدة والبر. ففي الجاهلية الغافلة نهض بعض رجال من أولى الخير، وتواثقوا بينهم على إقرار العدالة وحرب المظالم، وتجديد ما أندرس من هذه الفضائل في أرض الحرم!(168)

تجارته ف لخديجة ك وزواجه منها :

لما بلغ رسول الله ف خمسا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الأمين لما تكامل فيه من خصال الخير، قال له أبو طالب: يا بن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة وليست لنا مادة ولا تجارة، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك في عيراتها فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها وعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك

---

167) السهيلي، الروض الأنف ، 155،156/1، الحلبي ،السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 1 / 211

168) الغزالي ، فقه السيرة ، ص 65

وإن كنت أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا تجد من ذلك بدا.وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام فيكون عيرها كعامة عير قريش، وكانت تستأجر الرجال وتدفع إليهم الأموال مضاربة، وكانت قريش قوما تجارا ومن لم يكن تاجرا من قريش فليس عندهم بشيء فقال له رسولالله ف : فلعلها ترسل إلي في ذلك.فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك فتطلب أمراً مدبراً.فافترقا.وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له وقبل ذلك ما كان من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه، فقالت: ما علمت أنه يريد هذا.

ثم أرسلت إليه فقالت: إنه دعاني إلى البعث إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أعطي رجلا من قومك.

ففعل رسول الله ف .ثم لقي عمه أبا طالب فذكر له ذلك فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك.فخرج رسول الله ف مع غلامها ميسرة، وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً . (169)

169) محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 2 / 158 ، محمد بن عبد الله بن يحي ابن سـيد الناس ، عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 1 / 70

وخرج مع غلامها ميسرة حتى نزل الشام وربحت التجارة ربحًا عظيمًا . . وظهرت له بركات قصها ميسرة على سيدته بعد عودتهما، فأحبت السيدة خديجة محمدًا -ف - حبّا جمّا من أجل ما رأت منه وما سمعت عنه.

ذلك بأنه كان وهو في طور الشباب ناضج العقل راشد الرجولة، وكان مع ذلك صادق الحديث أمينًا إلى أعلى ما تدل عليه هذه الكلمة من سمو وجلال. أجل كان أمينًا على نفسه فلم يستسلم إلى شر أو رذيلة. وكان أمينًا على الناس، فلم ينتهك عرضًا ولم يظلم أحدًا ولم يفش سرّا، ولم يخن في أمانة.(170)

ولما رجع إلى مكة، ورأت خديجة في مالها من الأمانة والبركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرها غلامها ميسرة بما رأي فيه ف من خلال عذبة، وشمائل كريمة وفكر راجح، ومنطق صادق، ونهج أمين، وجدت ضالتها المنشودة ـ وكان السادات والرؤساء يحرصون على زواجها فتأبي عليهم ذلك ـ فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه ف تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضى بذلك، وكلم أعمامه، فذهبوا إلى عم خديجة وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وحضر العقد بنو هاشم ورؤساء مضر، وذلك بعد رجوعه من الشام بشهرين وأصدقها عشرين بَكْرة . وكانت سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبَا وثروة وعقلًا، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله ف ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت .

---

170) محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 102

وكل أولاده ف منها سوى إبراهيم،ولدت له : أولا القاسم ـ وبه كان يكنى ـ ثم زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، وعبد الله . وكان عبد الله يلقب بالطيب والطاهر، ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن،إلا أنهن أدركتهن الوفاة في حياته ف سوى فاطمة ك فقد تأخرت بعده ستة أشهر ثم لحقت به .(171)

بناء الكعبة الشريفة والتحكيم في وضع الحجر :

قال ابن إسحاق: ولمّا بلغ رسول الله ـ ف ـ خمساً وثلاثين سنة, جمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها، ويهابون هدمها، وإنّما كانت رَضْماً (172) فوق القامة، فأرادوا رفعها وتسقيفها؛ وذلك أنّ قوماً سرقوا كنْز الكعبة وكان في بئر في جوف الكعبة، وكان البحر قد رمى سفينة إلى جدّة لرجلٍ من تجار الروم، فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها. وكان بمكّة رجل قبطي نجّار، فهيّأ لهم بعض ما كان يصلحها. وكانت حَيّة تخرج من بئر الكعبة التي كان يُطرح فيه ما يهدى لها كلّ يوم، فتتَشَرّقُ (173) على جدار الكعبة، وكانت مما يهابون، وذلك أنّه كان لا يدنو منها أحد إلاّ احْزَأَلّت (174) وكَشّت (175)

171) ابن هشام ، السيرة النبوية،1 / 189 – 190 ، صفي الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص 58
172) الرضم: حجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين.
173) تتشرق: تبرز للشمس.
174) احزألت: رفعت رأسها.
175) وكشت: صوتت من جلدها لا من فيها.

وفتحت فاها، فبينا هي ذات يوم تتشرق على جدار الكعبة، بعث الله إليها طائراً فاختطفها. فذهب بها. فقالت قريش: إنّا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا، عندنا عامل رفيق، وعندنا خشب، وقد كفانا الله الحيّة.فلمّا أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ المخزومي فتناول من الكعبة حجراً، فوثب من يدهه حتى رجع إلى موضعه، فقال: يا معشر قريش، لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلاّ طيّباً، لا يدخل فيها مَهْر بَغِيّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من النّاس.ثم إنّ قريشاً تجزأت (176)الكعبة ؛فكان شِقّ الباب لبني عبد مناف وزهرة. وما بين الرّكن الأسود واليماني لبني مخزوم، وقبائل من قريش انضافت إليهم. وكان ظهر الكعبة لبني جُمَح وبني سَهْم، وكان شقّ الحِجْر لبني عبد الدّار، ولبني أسد بن عبد العزى، ولبني عدي، وهو الحطيم. ثم إنّ النّاس هابوا هدمها، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها فأخذ المعول، ثم قام عليها، وهو يقول: اللهم لم نَزِغ اللهم إنّا لا نريد إلاّ الخير. ثم هدم من ناحية الرّكنين، فتربص النّاس تلك اللّيلة، وقالوا: إن أصيب، لم نهدم منها شيئاً وردناها كما كانت، وإلاّ فقد رضي الله ما صنعنا. فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله، فهدم وهدم النّاس معه.

---

176) تجزأت: اقتسمت.

حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ـ أساس إبراهيم ؛ـ أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة، آخذٍ بعضها بعضاً، فأدخل بعضهم عَتَلة بين حجرين منها ليقلع بها أحدهما، فلما تحرك الحجر انتفضت مكّة بأسرِّها. فانتهوا عند ذلك الأساس.

ثم إنّ القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها، كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها، حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه، حتى تحاوروا وتحالفوا، وأعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدّار جفنة، مملوءة دماً، تعاهدوا ـ هم وبنو عدي بن كعب ـ على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدّم؛ فسمّوا "لَعَقَة الدّم" فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ، أو خمساً.

ثم إنّهم اجتمعوا في المسجد، فتشاوروا وتناصفوا؛فزعم بعض أهل الرّواية أنّ أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم المخزومي ـ وكان يومئذٍ أَسَنَّ قريش كلّهم ـ قال: اجعلوا بينكم أوّلَ مَن يدخل من باب المسجد. ففعلوا، فكان أوّل مَن دخل رسولُ الله ـ ف ـ. فلمّا رأوه، قال: "هذا الأمين، رضينا به، هذا محمّد". فلمّا انتهى إليهم أخبروه الخبر. فقال ـ ف ـ: "هلم إليّ ثوباً" فأُتي به. فأخذ الرّكن فوضعه فيه بيده. ثم قال: "لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثّوب، ثم ارفعوا جميعاً" ففعلوا،

حتى إذ بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ـ ف ـ ثم بنى عليه.وكان رسول الله ـ ف ـ ينقل معهم الحجارة. وكانوا يرفعون أُزرَهم على عواتقهم، ففعل ذلك رسول الله ـ ف فَلُبط به (177) ونودي: "استر عورتك" فما رؤيت له عورة بعد ذلك.

فلمّا بلغوا خمسة عشر ذراعاً سقفوه على ستة أعمدة، وكان البيت يُكْسَى القباطي ثم كُسِيَ البرود، وأوّل مَن كساه الدّيباج: الحجاج بن يوسف.

وأخرجت قريش الحِجْر لقلة نفقتهم. ورفعوا بابها عن الأرض، لئلا يدخلها إلاّ مَن أرادوا. وكانوا إذا أرادوا أن لا يدخلها أحد لا يريدون دخوله تركوه حتى يبلغ الباب، ثم يرمونه.(178)

فلمّا بلغ ـ ف ـ أربعين سنة بعثه الله بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذن وسراجاً منيراً.(179)

---

177) لبط: أي صرع وسقط إلى الأرض.

178) ابن كثير ، السيرة النبوية ، 1 / 277 ، الكلاعي الأندلسي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء ، 119/1 ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، 2 / 192 - 197

179) محمد بن عبد الوهاب ، مختصر السيرة ، 1 / 68

حفظ الله تعالي لنبيه قبل البعثة :

كان النبي ف قد جمع في نشأته خير ما في طبقات الناس من ميزات وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًا وافراَ من حسن الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل وإدمان الفكرة واستكناه الحق، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشئون الناس وأحوال الجماعات، فعاف ما سواها من خرافة ونأي عنها، ثم عاشر الناس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجد حسنًا شارك فيه وإلا عاد إلى عزلته العتيدة، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للأوثان عيدًا ولا احتفالًا، بل كان من أول نشأته نافرا من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، وحتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى .

يقول صاحب السيرة الحلبية : لقد حفظه الله تعالى في صغره ف من أمر الجاهلية أي من أقذارهم ومعايبهم أي بحسب ما آل إليه شرعه لما يريد الله تعالى به من كرامته حتى صار أحسنهم خلقا وأصدقهم حديثا وأعظمهم أمانة وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزيها وتكريما أي حتىكان ف أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقا وأكرمهم مخالطة وخيرهم جوارا وأعظمهم حلما وأمانة وأصدقهم حديثا

فسموه الأمين لما جمع الله عز وجل فيه من الأمور الصالحة الحميدة والفعال السديدة من الحلم والصبر والشكر والعدل والزهد والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء والمروءة ... فمن ذلك ما ذكره ابن إسحاق أن رسول الله ف قال لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ أزارا وجعله على رقبته يحمل عليها الحجارة فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمني لاكم ما أراه لكمة وجيعة ثم قال شد عليك أزارك قال فأخذته فشددته على ثم جعلت احمل الحجارة على رقبتي وأزاري على من بين أصحابي .(180)

قال السهيلي وهذه القصة إنما وردت في الحديث الصحيح في بنيان الكعبة كان ف يحمل الحجارة وأزاره مشدود عليه فقال له العباس يابن أخي لو جعلت أزارك على عاتقك ففعل فسقط مغشيا عليه ثم قال أزاري أزاري فشد عليه أزاره وقام يحمل الحجارة.

وفي حديث آخر انه لما سقط ضمه العباس إلى نفسه وسأله عن شأنه فأخبره أنه نودي من السماء أن اشدد عليك أزارك يا محمد قال وأنه لأول ما نودي.(181)

180) علي بن برهان الدين الحلبي ،السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 1 / 199

181) ابن سيد الناس، عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير ، 1 / 65

ولا شك أن القدر حاطه بالحفظ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، وعندما يرضى بإتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها، قال رسول الله ف : (ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون غير مرتين، كل ذلك يحول الله بيني وبينه، ثم ما هممت به حتى أكرمني برسالته، قلت ليلة للغلام الذي يرعى معي الغنم بأعلى مكة : لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب، فقال : أفعل فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفًا، فقلت : ما هذا ؟فقالوا : عرس فلان بفلانة، فجلست أسمع، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس . فعدت إلى صاحبي فسألني، فأخبرته، ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت بمكة فأصابني مثل أول ليلة . . . ثم ما هممت بسوء) .(182).

عن ابن عباس قال : حدثتني أم أيمن قالت : كان بوانة (183) صنماً تحضره قريش تعظمه وتنسك له النساك (184) ويحلقون رؤوسهم عنده ويعكفون عنده يوما في السنة وكان أبو طالب يكلم رسول الله ف أن يحضر ذلك العيد فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب ورأيت عماته غضبن يومئذ أشد الغضب وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا فلم يزالوا به

---

182) صفي الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص 58

183) بوانة: هضبة وراء بلدة ينبع ، معجم البلدان ، 2/ 599

184) وتنسك له النساك أي تعبد له العباد

حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا فقلن : ما دهاك قال : إني أخشى أن يكون لي لمم فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت قال : إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح : وراءك يا محمد لا تمسه قالت : فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ .

و عن أسامة بن زيد عن أبيه قال : كان صنم من نحاس يقال له إساف أو نائلة (185) يتمسح المشركون به إذا طافوا فطاف رسول الله ف وطفت معه فلما مررت مسحت به فقال رسول الله ف: لا تمسه قال زيد : فطفنا فقلت في نفسي : لأمسنه حتى أنظر ما يكون فمسحته فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ألم تنه. وقد زاد فيه بعضهم: قال زيد فو الله ما استلم صنما حتى أكرمه الله بالذي أنزل عليه . قال الذهبي : هذا حديث حسن . (186)

185) إساف ونائلة: صنمان كانا عند الصفا والمروة. قيل: إن أصلها أن إساف رجل من جرهم ونائلة بنت زيد بن جرهم، وكان يتعشقها في أرض اليمن، فأقبلوا حجاجا، فلما خلا البيت فوجدا غفلة من الناس ففجر بها في البيت، فمسخا حجرين، فأخرجوهما فوضعوهما عند الكعبة ليتعظ بهما الناس. فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبدا معها، فكانوا يذبحون عندهما. والله أعلم. عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي ، مختصر سيرة الرسول ، 1 / 39 .

186) الذهبي ، تاريخ الإسلام ، 1 / 17

وكان ف لا يأكل ما ذبح على النصب(187)، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل حتى أكرمني الله برسالته.(188) وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: هل عبدت وثنا قط ؟ قال: لا قالوا: فهل شربت خمرا قط ؟ قال: (لا وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان). (189)

وكان النبي ف يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأعزهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وألينهم عَرِيكة، وأعفهم نفسًا وأكرمهم خيرًا، وأبرهم عملًا، وأوفاهم عهدًا وآمنهم أمانة حتى سماه قومه الأمين لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية، وكان كما قالت أم المؤمنين خديجة ك يحمل الكل، ويكسب المعدوم ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق .

187) النصب حجر نصب فعد من دون الله وجمع أنصاب، كانوا يذبحون عليه فيحمر بالدم.
188) إبراهيم العلي ، صحيح السيرة النبوية، ص57.
189) محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 2 / 149

إرهاصات (190) نبوته ف :

هناك بعض الأمور الحاصلة للحبيب محمد ف بين يدي أيام مولده وبعثته وقبل ذلك من الأمور الخارقة للعادة الغريبة الموهنة للكفر التي يعجز عن بلوغها قوي البشر ولا يقدر عليها إلا خالق القوى والقدر لأنها في الاصطلاح يقال لها إرهاصات وتأسيسات للرسالة ولا تسمى في الاصطلاح معجزات (191).

فقد روى البعض أن إرهاصات بالبعثة وقعت عند الميلاد قدمت إرهاصات لمولده الشريف، أفزعت كسرى وقيصر واهتز لمقدمه الوجود.

فقد رووا - رحمهم الله - أنه " لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ف ارتجس إيوان كسرى (192) وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى الموبذان (193)

190) الإرهاص شــرعا: قســم من الخوارق، وهو الخارق الذي يظهر من النبي قبل البعثة، ســمي به لأن الإرهاص في اللغة بناء البيت، فكأنه بناء بيت إثبات النبوة .

191) علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 3 / 342

192) ارتجس أي اضطرب وتحرك حتى سمع صوته

193) الموبذان قاضي المجوس

إبلا صعابا تقود خيلا عرابا (194) قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادهم. فلما أصبح كسرى أفزعه ذلك فتصبر عليه (195) تشجعا، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته(196)،

فجمعهم، ولبس تاجه وجلس على سريره ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيما بعثت إليكم ؟ قالوا: لا، إلا أن يخبرنا الملك، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران فازداد غما إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأى وما هاله (197) فقال الموبذان (198): وأنا - أصلح الله الملك - قد رأيت في هذه الليلة رؤيا، ثم قص عليه رؤياه في الإبل، فقال: أي شيء يكون هذا يا موبذان ؟ قال: حدث يكون في ناحية العرب - وكان أعلمهم من أنفسهم - فكتب عندذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، أما بعد فوجه إلي برجل عالم بما أريد أن أساله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني فلما ورد عليه،

194) عراباً أي عربية منســـوبة إلى العرب وفرقوا بين الخيل والناس فقالوا في الناس عرب وأعراب وفي الخيل عراب والإبل العراب والخيل العراب خلاف البخاتي والبراذين . لسان العرب ،4 / 2866

195) تجلد أي تصبر وأظهر الجلادة من نفسه

196) المرازبة جمع مرزبان وهو الفارس الشجاع المتقدم على القوم دون المكره.

197) هاله: أفزعه.

198) اسم لحاكم المجوس كقاضي القضاة للمسلمين.

قال له: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ فقال: لتخبرني، أو ليسألني الملك عما أحب، فإن كان عندي منه علم، وإلا أخبرته بمن يعلم - فأخبره بالذي وجه به إليه فيه، قال: علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام، يقال له: سطيح (199)، قال: فأته فاسأله عما سألتك عنه، ثم ائتني بتفسيره، فخرج عبد المسيح، حتى انتهى إلى سطيح، وقد أشفى (200)على الضريح (201).

فسلم عليه، وكلمه فلم يرد إليه سطيح جوابا فأنشأ يقول:

أصم أم يسمع غطريف(202) اليمن   أم فاز (203) لم به شأو العنن (204)

---

199) هو الربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدي بن الذئب، من بني مازن، من الأزد: كاهن جاهلي غساني.من المعمرين، يعرف بسطيح ، وكان العرب يحتكمون إليه ويرضون بقضائه، حتى أن عبد المطلب بن هاشم - على جلالة قدره في أيامه - رضي به حكما بينه وبين جماعة من قيس عيلان، في خلاف على ماء بالطائف، كانوا يقولون: إنه لهم.وكان يضرب المثل بجودة رأيه، قال الزبيدي: كان أبدا منبسطا منسطحا على الأرض لا يقدر على قيام ولا قعود، ويقال: كان يطوى الحصيرة ويتكلم بكل أعجوبة.توفي سنة 52 ق..ابن كثير ، السيرة النبوية ، 1 / 218 ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 1 / 117

200) أشفى أي أشرف

201) على الضريح أي الموت أي احتضر وعمره إذ ذاك ثلثمائة سنة وقيل سبعمائة سنة وكان جسدا ملقا لا جوارح له وكان لا يقدر على الجلوس ، علي بن برهان الدين الحلبي، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 1 /120

202) الغطريف السيد

203) فاز أي مات

204) وشاوالعنن الشأو السباق والعنن الموت يريد عرض له الموت فقبضه

وذكر سبعة أبيات من الشعر.قال: فلما سمع سطيح شعره رفع رأسه يقول: عبد المسيح على جمل مشيح، أتى سطيح، وقد أوفى على الضريح، بعثك ملك بني ساسان، لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبذان، رأى إبلا صعابا تقود خيلا عرابا، قد قطعت دجلة، وانتشرت في بلادها، يا عبد المسيح، إذا كثرت

التلاوة (205)، وظهر صاحب الهراوة (206)، وفاض وادي السماوة، وغاصت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاما.يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات، وكل ما هو آت آت.

205) إذا كثرت التلاوة أي تلاوة القرآن

206) قال ابن منظور في "لسان العرب": الهراوة العصا، وقيل: العصا الضخمة. وقال ابن الأثير وتبعه ابن منظور في "لسان العرب". وفي حديث سطيح: "وخرج صاحب الهراوة" أراد به النبي - ف- لأنه كان يمسك القضيب بيده كثيرًا، وكان يُمْشَى بالعصا بين يديه وتغرز له فيصلي إليها. انتهى.

قد وقع تأويل رؤيا الموبذان في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم حين غزى المسلمون بلاد الفرس وقطعوا دجلة إليهم وانتشروا في بلادهم يقتلون مقاتلتهم ويسبون نساءهم وأطفالهم حتى أثخنوهم وانتزعوا الملك والممالك منهم ومزقوهم كل ممزق، وكان معظم ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه وقد دعا عليهم رسول الله - ف- أن يمزقوا كل ممزق، وذلك حين بلغه أن كسرى مزّق كتابه الذي بعثه إليه يدعوه فيه إلى الإسلام. روى ذلك الإمام أحمد والبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وروى ابن سعد في "الطبقات" عن عبد الله بن حذافة رضي الله عنه أن رسول الله - ف- لما بلغه أن كسرى مزّق كتابه قال: «اللهم مزّق ملكه» وقد استجاب الله دعاء رسوله - ف- فمزّق ملك كسرى كل ممزّق ولم تقم لهم دولة بعد ذلك. حمود بن عبد الله بن حمود التويجري ، كتاب الرويا ، 1 / 247.

ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته فلما قدم عبد المسيح على كسرى أضجره بما قال له سطيح، فقال كسرى إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكا كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان ا .(207)

وبالرغم من أن ذلك رواه الطبري والبيهقي وغيرهما . وليس له إسناد ثابت ولم يشهد له تاريخ تلك الأمم إلا أن قوة دواعي التسجيل تدفع لذكرها لأنها إذا تليت على قلب المؤمن زادته إيمانا وإذا تفكر فيها ذو البصيرة واليقين زادته إيقانا فإن كل من أرسله الله عز وجل لم يخله من آية أيده بها مخالفة للعادات لكون ما يدعيه من الرسالة مخالفا لها فيستدل بتلك الآية على صدقة فيما يدعيه لأن اقترانها بدعواه الرسالة تصديق له فيها ، وقد كانت للأنبياء أي الرسل معجزات مختلفة أي وهو ف أكثر الرسل معجزة وأعظمهم آية وأظهرهم برهانا أي فقد جاء ما من الأنبياء من نبي إلى وقد أعطى من الآيات من آمن عليه البشر أي آمنوا بسبب إظهاره وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحي الله عز وجل إلي وهو القرآن لأنه الذي تحداهم به فأرجو أن أكون أكثرهم تبعا يوم القيامة (208)

207) محمد بن يوسف الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، 1/ 4 - 6

208) علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ، 3 / 342

كما وقعت عدة أحداث أخري كانت بمثابة إرهاصات وعلامات ودلالات على نبوته ف ومنها:

1- تسليم الحجر عليه ف .

فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ف :(إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث. إني لأعرفه الآن).(209)

2- الرؤيا الصادقة.

أما الرؤيا الصادقة فكما روت عائشة كأن أول ما بدئ به رسول اللهف من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.(210)

3- العزلة والتحنّث (211).

لقد حبب إليه الخلوة فكان يخرج إلى غار حراء فيتحنّث فيه وهو التعبُّدُ الليالِيَ ذواتِ العدد. كما في الصحيحين. وفي التعبّد درس للمسلم والداعية ليستعين بعبادة الله تعالى على مقاومة نزعات النفس، وشهواتها، ومغريات الحياة وأعراضها، ويتحمل مشاقّ الدعوة ومشاكلها وشدائدها، ويصبر على تربية الناس وتوجيههم وما يصدر عنهم من إعراض أو مشاقّة للداعية.(212)

---

209) مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه قبل النبوة رقم 2277.
210) البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم 3.
211) والتحنث هو التفكير والتأمل والتعبد
212) يحيى بن إبراهيم اليحيى،نفحة عبير من سيرة البشير النذير ، 1 / 19 – 20

نزول الوحي :

لما بلغ الحبيب محمد ف الأربعين من عمره ، وكان يخلو في غار حراء بنفسه، ويتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبده في الغار يستغرق ليالي وكان يحمل معه من الماء والطعام ما يكفيه لقضاء جزء كبير من شهر رمضان في كل عام وبين تلك الصخور والرجام، وفي هذا الصمت العميق، ومن خلال تلك الكوة الضيقة كان يطل محمد -ف - على الدنيا بأسرها، فيطالع عظمة الكون ونظامه ودقته وإحكامه، ثم ينظر مع ذلك إلى أهل مكة وما حولها، فيراهم في الغي سادرين فيستولي على نفسه الضيق والألم، ويتمنى أن لو جاء الحق الذي تسكن له النفوس وتطمئن به القلوب، وتنجاب أمامه الغياهب والظلمات.

وفي نهار يوم الاثنين من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء ، وقد نقل البخاري في صحيحه حديث عائشة ا، فعن عائشة ك قالت: «أول ما بدئ به رسول الله ف من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه -وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك

فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني

فقال: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) [سورة العلق: الآيات 1- 4]

فرجع بها رسول الله ف يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني! زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل(213) وتكسب المعدوم(214)، وتقري الضيف، وتعين على وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق(215)، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فيكتب الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب،

213) تحمل الكل: تنفق على الضعيف، واليتيم والعيال، والكل أصله: الثقل والاعياء.
214) وتكسب المعدوم: تعفي الناس مالايجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق.
215) نوائب الحق: لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل.

وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله - ف - خبر ما رأى: فقال له ورقة: هذا الناموس(216) الذي نزّل الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً(217)، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله - ف -: أو مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً(218)، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي)(219)(220).

وهكذا ابتدأت دعوة الحق نورًا أضاء في غار تقاس مساحته بالأشبار، ولكن لم يلبث هذا النور إلا قليلًا حتى ملأ الأقطار والأمصار، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

---

216) الناموس: هو جبريل عليه السلام، صاحب سر الخير .
217) جذعاً: الشاب القوي.
218) مؤزراً، قوياً بالغاً.
219) فتر الوحي: تأخر نزوله.
220) البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم 3.

وقد فتر – تأخر - الوحي عن الحبيب محمد ف مدة من الزمن وكان ذلك ليذهب ما كان وجده الحبيب محمد ف من الروح وليحصل له التشوق إلي العود(221) .

وقد اختلف العلماء في هذه الفترة. وأرجح الأقوال أنها أربعون يومًا فحسب ولكن هذه المدة على قصرها مرت على الحبيب محمد -ف - وكأنها أربعون سنة ولا عجب في ذلك، فقد اشتد به الشوق لنزول الوحي عليه، وخاف أن يكون الله قد حرمه من هذه النعمة الكبرى.

ولكن الله تعالى رحم محمدًا -ف - من هذه الحيرة الأليمة، فعاد إليه الوحي ونزل فيقول الحبيب محمد ف : (جاورت بحراء شهراَ فلما قضيت جوارى هبطت [فلما استبطنت الوادي] فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئًا ونظرت عن شمالي فلم أر شيئًا، ونظرت أمامي فلم أر شيئا، ونظرت خلفي فلم أرشيئًا، فرفعت رأسى فرأيت شيئًا، [فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه رعبًا حتى هويت إلى الأرض] فأتيت خديجة فقلت : [زملوني، زملوني] ، دثرونى، وصبوا على ماء باردًا)

221) فتح الباري ، 1 / 36

قال : (فدثروني وصبوا على ماء باردًا، فنزلت :

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7) [سورة المدَّثر: الآيات1-7] .

(222) إن هذه الآيات تضمنت النداء العلوي ـ في صوت الكبير المتعال ـ بانتداب الحبيب محمد ف لهذا الأمر الجلل، وانتزاعه من النوم والتدثر والدفء إلى الجهاد والكفاح والمشقة :

كأنه قيل : إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا، أما أنت الذي تحمل هذا العبء الكبير فما لك والنوم ؟ وما لك والراحة ؟ وما لك والفراش الدافئ ؟ والعيش الهادئ ؟ والمتاع المريح ! قم للأمر العظيم الذي ينتظرك، والعبء الثقيل المهيأ لك، قم للجهد والنصب، والكد والتعب، قم فقد مضى وقت النوم والراحة، وما عاد منذ اليوم إلا السهر المتواصل والجهاد الطويل الشاق، قم فتهيأ لهذا الأمر واستعد .

222) محمد الطيب النجار ، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، 1 / 110 – 111 ، صفي الرحمن المباركفوري ، الرحيق المختوم ، ص 66 .

إنها كلمة عظيمة رهيبة تنزعه ف من دفء الفراش في البيت الهادئ والحضن الدافئ، لتدفع به في الخضم، بين الزعازع والأنواء، وبين الشد والجذب في ضمائر الناس وفي واقع الحياة سواء . وقام رسول الله ف ، فظل قائمًا بعدها أكثر من عشرين عامًا؛ لم يسترح ولم يسكن، ولم يعش لنفسه ولا لأهله .

قام وظل قائمًا على دعوة الله، يحمل على عاتقه العبء الثقيل الباهظ ولا ينوء به، عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها، عبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى، عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا؛ لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد منذ أن سمع النداء العلوى الجليل، وتلقى منه التكليف الرهيب . . . جزاه الله عنا وعن البشرية كلها خير الجزاء . (223)

223) سيد قطب ، في ظلال القرآن ، تفسير سورة المدثر ، 3 / 377

الدعوة إلي الله تعالي وموقف قريش منها

قام رسول الله ف بعد نزول ما تقدم من آيات سورة المدثر، بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى؛ وحيث إن قومه كانوا جفاة لا دين لهم إلا عبادة الأصنام والأوثان، ولا حجة لهم إلا أنهم ألفوا آباءهم على ذلك، ولا أخلاق لهم إلا الأخذ بالعزة والأنفة، ولا سبيل لهم في حل المشاكل إلا السيف، وكانوا مع ذلك متصدرين للزعامة الدينية في جزيرة العرب، ومحتلين مركزها الرئيس، ضامنين حفظ كيانها فقد كان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة في بدء أمرها سرية؛ لئلا يفاجئ أهل مكة بما يهيجهم .(224)

أولاً : الدعوة السرية :

بعد نزول آيات المدثر قام الحبيب محمد ف يدعو إلى الله وإلى الإسلام سرّاً، وكان طبيعيَا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه.

وكان أول من آمن بالنبي ف من النساء، بل أول من آمن به على الإطلاق السيدة خديجة ا.

224) صفي الرحمن المباركفوري ، الريق المختوم ، ص 72

وبعد إيمان السيدة خديجة دخل علي بن أبي طالب في الإسلام، وكان أول من آمن من الصبيان، وكانت سنه إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وكان قد تربى في حجر رسوله ف قبل الإسلام .(225)

ثم أسلم مولاه زيد بن حارثة - ا- هو أول من آمن بالدعوة من الموالي ، وكان أن سارعت بنات الحبيب محمد ف إلى الإسلام ، فأسلمت كل من زينب، وأم كلثوم، وفاطمة ورقية.(226)

وسارع صديقه الحميم أبو بكر الصديق - ا– إلي الإسلام وهو أولمن آمن بالنبي ف من الرجال الأحرار، والأشراف(227) وكان له رصيده الأدبي والعلمي والاجتماعي الكبير في المجتمع المكي ، فلما نشط وبدأ الدعوة للإسلام استجاب له عثمان بن عفان - ا- و عبد الرحمن بن عوف - ا- وسعد بن أبي وقاص - ا- والزبير بن العوام - ا- وطلحة بن عبيد الله- ا- . فكان هؤلاء النفر الذين سبقوا الناس هم الرعيل الأول وطليعة الإسلام .

ومن أوائل المسلمين أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرة ابن عمة رسول الله ف (برة بنت عبد المطلب) وأخوه من الرضاع، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي،

---

225) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 244/1 ، أبو شهبة ، السيرة النبوية ،284/1

226) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 28/1.

227) ابن هشام،السيرة النبوية ، 371/1.

وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقدامة وعبد الله ابنا مظعون، وفاطمة بنت الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب، وزوجةسعيد بن زيد، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وخباب بن الأرت حليف بني زهرة.

وأسلم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود بن الحارث بن شمخ بن مخزوم.. بن هذيل، ومسعود بن القاري، وهو مسعود بن ربيعة بن عمرو، بن سعيد بن عبد العزى، بن حمالة بن القارة.

وأسلم سليط بن عمرو، وأخوه حاطب بن عمرو، وعياش بن أبي ربيعة وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة السهمي، وعامر بن ربيعة حليفآل الخطاب وعبد الله بن جحش وأخوه أحمد، وجعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث، وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه حطاب بن الحارث، وامرأته فُكَيهة بنت يسار وأخوهما مَعْمَر بن الحارث والسائب بن عثمان بن مظعون، والمطلب ابن أزهر، وامرأته رملة بنت أبي عوف والنحّام بن عبد الله بن أسيد، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وفهيرة وأمه، وكان عبدًا للطفيل بن الحارث بن سخبرة، فاشتراه الصديق وأعتقه وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، وامرأته أُمَينة بنت خلف، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس

وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم بن يقظة وقال ابن هشام: عَنْـسي من مَذْحج. وصهيب بن سنان، هو (سابق الروم).

ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس، وأمه.

ومن أوائل السابقين: بلال بن رباح الحبشي.

وهؤلاء السابقون من جميع بطون قريش، عدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراَ.

وقال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام في مكة، وتُحدِّث به.(228)

لقد كان الإسلام ينساب إلى النفوس الطيبة، والعقول النيرة، والقلوب الطاهرة التي هيأها الله لهذا الأمر، ولقد كان في الأوائل خديجة وأبو بكر وعلى وعثمان والزبير، وعبد الرحمن وطلحة، وأبو عبيدة وأبو سلمة والأرقم وعثمان بن مظعون، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن جحش، وجعفر بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص، وفاطمة بنت الخطاب وخالد بن سعيد، وأبو حذيفة بن عتبة وغيرهم ي، وهم من سادة القوم وأشرافهم(229). هؤلاء هم السابقون الأولون الذين سارعوا إلى الإيمان والتصديق بدعوة النبي ف .

---

228) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 287/1، سيرة ابن هشام ، 245/1 - 262.

229) صالح الشامي ، من معين السيرة ، ص40.

استمر الحبيب محمد ف في دعوته السرية، يستقطب عددا من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة، بعد إقناعهم بالإسلام، وهؤلاء كانوا نعم العون والسند للحبيب محمد ف لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية، وأصبحت دار الأرقم السرية مركزاً جديدًا للدعوة يتجمع فيه المسلمون، ويتلقون عن الحبيب محمد ف كل جديد من الوحي ويستمعون له -عليه الصلاة والسلام- وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن،وتذكر كتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقرَا لقيادة الرسول ف كان بعد المواجهة الأولى، التي برز فيها سعد بن أبي وقاص - ا-. قال ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله ف إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص - ا- في نفر من أصحاب رسول الله ف في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلَحي بعير فشجه، فكان أول دم أهريق في الإسلام» (230).

واستغرقت فترة الدعوة السرية ثلاث سنوات وكان أول شيء فرضه الله من الشرائع في هذه المدة بعد الإقرار بالتوحيد إقامة الصلاة، وقد جاء في الأخبار حديث تعليم الحبيب محمد ف زوجه خديجة الوضوء والصلاة، حين افترضت على رسول الله؛ أتاه جبريل

230) ابن هشام ، 236/1، التربية القيادية ، 198/1.

وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، والرسول ينظر ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ الحبيب محمد ف كما رأى جبريل توضأ، ثم قام جبريل ؛فصلى به وصلى الحبيب محمد ف بصلاته، ثم انصرف جبريل ؛فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها، يريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل ؛فتوضأت كما توضأ الحبيب محمد ف ثم صلى بها الحبيب محمد ف كما صلى بهجبريل ؛ (231). وعلي ما يبدو أن أخبار الدعوة السرية والفردية بدأت تتراميإلي مسامع قريش ، ولكنها لم تعرها كثير من الاهتمام ، ولعل السبب في ذلك أنها نظرت إلي الحبيب محمد ف علي انه أحد أولئك الديانين الذين يتكلمون عن الألوهية والتوحيد ، كما كان الحال مع أمية بن أبي الصلت وقيس بن ساعدة وعمرو بن نفيل وأشباههم ، إلا أنها تتوجست خيفة من ذيوع خبره وامتداد أثره وأخذت ترقب علي الأيام مصيره ودعوته . (232)

231) ابن هشام ، السير النبوية ، 244/1 ، صالح الشامي ، من معين السيرة ، ص41، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 103

232) فقه السيرة ، ص 76

والحقيقة أن الدعوة السرية ،كانت لضرورة فرضها الواقع، وإلا فالأصل هو بيان دين الله وشرعه، وحكمه لكل الناس، أما الاستسرار بما سوى ذلك من الوسائل والخطط والتفصيلات، فهو أمر مصلحي، خاضع للنظر والاجتهاد البشري إذ لا يترتب عليه كتمان للدين، ولا سكوت عن حق، ولا يتعلق به بيان، ولا بلاغ

ومن ذلك مثلا معرفة عدد الأتباع المؤمنين بالدعوة، فهذا أمر مصلحي لا يخل بقضية البلاغ والنذارة، التي نزلت الكتب وبعثت الرسل من أجلها، فيمكن أن يظل سرّا متى كانت المصلحة في ذلك مع القيام بأمر الدعوة والتبليغ؛ ولهذا فإن الحبيب محمد ف حتى بعد أن صدع بدعوته، وأنذر الناس وأعلن النبوة، ظل يخفي أشياء كثيرة، لا تؤثر على مهمة البلاغ والبيان كعدد أتباعه، وأين يجتمع بهم؟ وما هي الخطط التي يتخذونها إزاء الكيد الجاهلي(233).

وخلال مرحلة الدعوة السرية تكونت جماعة من المؤمنين لها خصائصها المتمثلة في الإخلاص لله ، الاستجابة الكاملة لله ولرسوله ف وسيادة روح التعاون والإخاء ، والصبر والثبات في تبليغ الدعوة ، وغيرها من الصفات والخصائص التي تؤهل هذه الجماعة لخوض غمار الدعوة الجهرية وما سيصاحبها من تعذيب وإيذاء .

233) الغرباء الأولون ، ص 124 – 126 ، الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 122

ثانياً : الدعوة جهاراً :

إن الدعوة الإسلامية ليست خاصةً بقريش ولا بالعرب، وإنما هي رحمةمن الله لجميع الخلق، فلا بد من الجهر بها، وإعلانها للناس، والسعي لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة.

وهذا يعني بداهةً أن من أبرز خصائص دعوة الإسلام: الإعلان، والصدع والبلاغ، والنذارة، والبشارة، ويتحمّل أتباعها ما يترتّب على ذلك من الإيذاء والقتل وغيره.

لقد مكث رسول الله ف ثلاث سنوات يدعو إلى الله تعالى سراً ثم أمره الله تعالى أن ينذر عشيرته الأقربين فأنذرهم، ثم أمره بالصدع بالدعوة فصدع بها.

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: لما نزلت وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [سورة الشعراء: الآية 214]

ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ف حتى صعد الصفا، فهتف يا صباحاه، فقالوا: من هذا. فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم. قال أبو لهب: تباً لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزلت

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [سورة المَسَد: الآية 1]

وفي رواية- ناداهم بطنًا بطنًا، ويقول لكل بطن: «أنقذوا أنفسكم من النار» ثم قال: « يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها» (234).أي أصلها حسب حقها .

ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أي ردة فعل، سوى أن أبا لهب واجه النبي ف بالسوء، وقال : تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت :

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) [سورة المَسَد: الآية 1] ك

انت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول ف لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلات بينه وبينهم، وأن عصبة القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله . ولم يزل هذا الصوت يرتج دويهفي أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى :

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ [سورة الحجر: الآية 94] ،

 فقام رسول الله ف يجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم

234) مسلم، كتاب الإيمان ، 348- (204) .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ [سورة الأعراف: الآية 59] ،

وبدء يعبد الله تعالى أمام أعينهم، فكان يصلى بفناء الكعبة نهارًا جهارًا وعلى رءوس الأشهاد .

ثم جاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي بهمن الناس على اختلاف قبائلهم وبلدانهم ويتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حر وعبد، وقوي وضعيف وغني وفقير، حين نزول قوله تعالى

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (94) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) [سورة الحجر: الآية94- 97]

رد فعل قريش علي الصدع بالحق :

وقد نالت دعوه الحبيب محمد ف مزيدًا من القبول، ودخل الناس في دين الله واحدًا بعد واحد . وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيتهم تباغض وتباعد وعناد واشمأزت قريش من كل ذلك، وساءهم ما كانوا يبصرون .

وكانت النتيجة المتوقعة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، وقد اشتد الصراع بين النبي ف وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان، وكان هذا في حد ذاته مكسبَا عظيمًا للدعوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائها ممن كان يشيعون في القبائل قالة السوء عنها، فليس كل الناس يسلمون بدعاوي زعماء الكفر والشرك.

كانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة وسمع القاصي والداني بنبوة الحبيب محمد ف ، وصار هذا الحدث العظيم حديث الناس في المجالس ونوادي القبائل، وفي بيوت الناس(235).

والحقيقة أن الجهر بالدعوة ينقلها من مكان مغلق إلى الهواء الطلق والميدان الرحب، وممن سيساهم في نقل الدعوة هم أعداؤها عن طريق التحذير منها، والناس ليسوا كلّهم تقليديّين إمعات يتبعون ما تقوله قريش،

235) سلمان العودة، الغرباء الأولون، ص167

وهناك أمثلة من إسلام بعض القبائل بسبب ما سمعوه من سبٍ للرسول ف ودعوته فحمله على الاطلاع على الأمر من قرب فدخلوا فيه.

ولا شك أن النتيجة القريبة المباشرة للجهر بالدعوة هي الصدّ والإعراض والتكذيب والإيذاء والسخرية، والرسول ف قد وطّن نفسه على ذلك كلّه ويعرف تلك النتيجة مسبقاً، ولكن ليست هذه هي كل النتيجة، فما بعدها هو المطلوب والمقصود.

وقد تفقد الدعوة في بدايتها وسائل الإعلام المطلوبة للتبليغ ولكن أعداءها قد يقومون بجزء من ذلك نيابةً عنها وذلك بما تثيره على الدعوة من كيد وشبهات (236).

لا شك أن إعلان الدعوة إلى التوحيد في أوساط قريش قد أزعج قريشاً ورأوا فيها معتقداً يهدد معتقداتهم الموروثة التي عشعشت في عقولهم، ويهدّد مصالحهم العامة التي بنيت على تلك المعتقدات الباطلة واستفادوا منها مركزاً بين القبائل العربية. فانتصب المشركون لعداوة الحبيب محمد ف ومقاومة دعوته .

---

236) يحيى بن إبراهيم اليحيى ، نفحة عبير من سيرة البشير النذير ، ص 24

وسائل قريش في مجابهة دعوة الحبيب محمد ف : (237)

1 - وفد قريش إلي أبي طالب :

لما رأت قريش أن دعوة الحبيب محمد ف قد سرت في بلاد العرب اتبعت عدة وسائل لمحاربة الدعوة وكانت محاولات قريش عن طريق المفاوضات مع عمه أبو طالب عله يستجيب لهم ويمنع ابن أخيه عن دعوته فمشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب : عتبة وشبيبة ابنا ربيعة . وأبو البختري بن هشام . والأسود بن المطلب . والوليد بن المغيرة . وأبو جهل بن هشام . والعاص بن وائل . ونبيه ومنبه ابنا الحجاج . ومن مشى منهم . فقالوا يا أبا طالب : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فأما أن تكفه عنا وأما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فقال لهم أبو طالب قولا جميلا وردهم ردا رقيقا فانصرفوا عنه ومضى الحبيب محمد ف لما هو عليه . (238)

ثم لما تباعد الرجال وتضاغنوا وأكثرت قريش ذكر الحبيب محمد ف فكروا في مفاوضة أبي طالب مرة أخرى . فمشوا إليه وقالوا : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا وانأ قد اشتهيناك أن تنهي ابن أخيك

237) في هذا المبحث لن يتم التقيد بترتيب وقوع الأحداث زمنياً بتاريخ وقوعها بل موضـــوعياً حتى يســـهل علي القاريء فهم الأحداث .

238) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 265

فلم تفعل . وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياكفي ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه .

عَظُم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى الحبيب محمد ف فأعلمه ما قالت قريش وقال له : أبق على نفسك وعلى ولا تحملني من الأمر مالا أطيق . فظن الحبيب محمد ف أن عمه قد خذله وضعف عن نصرته . فقال له " يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني القمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته " ثم بكى رسول الله ف وقام . فلما ولى ناداه أبو طالب فأقبل عليه وقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبدا ، وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا (239)

أصر أبو طالب على الدفاع عن ابن أخيه قياما بالواجب عليه نحو من تربى في كفالته ونشأ في بيته وعملا بالمروءة . ولكنه مع ذلك بقى على دينه ولم يعتنق الإسلام . لذلك صارت مهمته شاقة ومركزه حرجاً، فأمامه قريش متعصبة لدينها

239) علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ،1 / 462

وقد أغضبها قيام الحبيب محمد ف بنشر الإسلام ومحاربة الأصنام . وصاحب الدعوة لا يثنيه عن القيام بما أمر به سخرية ساخر أو اضطهاد مضطهد فلو أن أبا طالب أسلم لكان دفاعه أعظم وحجته أبلغ أمام العرب وأحكم لم تيأس قريش من محاورة أبو طالب فمشوا إليه بعمارة بن الوليد . فقالوا يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجملهم فخذه فلك عقله (240) ونصرته فأتخذه ولدا وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك نقتله فإنما رجل برجل . فقال : والله لبئس ما تسومونني أتعطونني أبنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبدا . فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف: لقد أنصفك قومك وما أراك تريد أن تقبل منهم . فقال والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك .

وكل عاقل يرى أن ما عرضته قريش على أبي طالب في غاية السخف لكنهم كانوا يتلمسون الحيل للخلاص من صاحب الدعوة الحبيب محمد ف بأي حال فلما يئسوا من إجابة طلبهم اشتدت قريش على من أسلم فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله ف فأجابوا إلى ذلك واجتمعوا إليه .(241)

240) فلك عقله : أي ديته إذا قتل

241) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 3 / 48

2- كف الحجاج عن الاستماع للدعوة :

بعدما فشلت المفاوضات مع أبو طالب زادت حيرة قريش في أمر الحبيب محمد ف تحيرت ألباب العرب في القرآن الذي جاء به ونزل بلغتهم وهم أهل فصاحة وبلاغة ، وخشيت قريش أن ينتشر الإسلام وينتصر الحبيب محمد ف بدينه على الأصنام . فاتفقوا على إطلاق اسم على رسول الله ف ينفر القبائل منه ويشوه سمعته ويكون عقبة في سبيل نشر دعوته . ذلك أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سن فيهم . وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش أنه قد حضر هذا الموسم . وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه . وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا واحدا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ويرد قولكم بعضه بعضا . فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به . قال بل أنتم قولوا اسمع . قالوا نقول كاهنا قال والله ما هو بكاهن : لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة (242) الكاهن ولا سجعه (243) . قالوا فنقول مجنون . قالوا ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه (244) ولا تخالجه (245) ولا وسوسته (246) .

---

242) الزمزمة : كلام خفي لا يسمع

243) السجع أن يكون الكلام المنثور له نهايات كنهايات الشعر

244) بخنقه . يريد الأختناق الذي يصيب المجنون .

245) والتخالج اختلاج الأعضاء وتحركها عن غير ارادة

246) الوسوسة ما يلقيه الشيطان في نفس الإنسان

قالوا فنقول شاعر . قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضة ومبسوطة (247) فما هو بالشعر . قالوا فنقول ساحر . قال ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده (248) . قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس ؟ والله إن لقوله لحلاوة وان أصله لعذق (249) وإن فرعه لجناة (250)

وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو يفرق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته فتفرقوا عنه بذلك .(251)

فأنزل الله تعالى في الوليد: سَأُصْلِيهِ سَقَرَ [سورة المدَّثر: الآية 26]

وامتثلت قريش لرأي زعمائها ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر أحد إلا حذروه إياه . لكن النتيجة جاءت عكس ذلك فقد انتشر ذكره ف في بلاد العرب وأسلم العديد من سادات العرب أمثال ضماد الأزدي وعمرو بن عبسة ، والحصين والد عمران ، وأبو ذر ن أجمعين وقد كان ضماد بن ثعلبة الأزدي صديقا للحبيب ف و سلم في الجاهلية .

247) هذه كلها أنواع من الشعر

248) اشـــارة إلى ما كان يفعل الســـاحر من أن يعقد خيطا ثم ينفث عليه . ومنه قوله تعالى : ﵂ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ ﵃ [سورة الفَلَق:4] يعني الساحرات

249) العذق الكثير الشعب والأطراف في الأرض

250) أي فيه ثمر يجنى

251) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 271

وكان رجلا يتطبب ويرقى ويطلب العلم . فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إن محمدا مجنون. فجاءه وقال أني راق فهل بك من شيء فأرقيك ؟ فأجابه الحبيب ف بقوله " الحمد لله نحمده ونستعينه . من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإن محمدا عبده ورسوله أما بعد " فقال له ضماد أعد علي كلماتك هؤلاء فأعادهن الحبيب ف ثلاثا . فقال والله لقد سمعت قول الكهنة وسمعت قول السحرة وسمعت قول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات . لقد بلغت يا عوس البحر (252) فمد يدك أبايعك على الإسلام فمد الحبيب محمد ف يده فبايعه وأسلم .(253)

كما أسلم عمرو بن عبسة - ا - ويقول عن إسلامه : كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان فسمعت برجل بمكة يخبر أخباراً، فقعدت على راحلتي، فقدمت عليه، فإذا رسول الله - ف - مستخفياً، جرءاء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة فقلت له: ما أنت؟ قال: (أنا نبي) فقلت: وما نبي؟ قال: (أرسلني الله) فقلت: وبأي شيء أرسلك؟

252) ياعوس البحر : معناه وسط البحر ، أو لجته أو قعره الأقصى
253) رواه مسلم

قال: (أرسلني بصلة الأرحام وكسر الأوثان وأن يوحد الله لا يشرك به شيء) قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: (حر وعبد) قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به فقلت: إني متبعك. قال: (إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ألا ترى حالي وحال الناس؟ ولكن أرجع إلى أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني).

قال فذهبت إلى أهلي، وقدم رسول الله - ف - المدينة، وكنت في أهلي فجعلت أتخبر الأخبار وأسأل الناس حين قدم المدينة، حتى قدم عليّ نفر من أهل يثرب من أهل المدينة، فقلت: ما فعل هذا الرجل الذي قدم المدينة؟ فقالوا: الناس إليه سِراع. وقد أرادوا قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك. فقدمت المدينة فدخلت عليه فقلت: يا رسول الله أتعرفني؟ قال: (نعم. أنت الذي لقيتني بمكة؟).(254)

كما أسلم الحصين والد عمران م، وكانت قريش تعظمه وتبجله فأرادت أن تستعين به في كف الحبيب محمد ف فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل ، فإنه يذكر آلهتنا، ويسبهم فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب الحبيب محمد - ف - فقال: (أوسعوا للشيخ). وعمران وأصحابه متوافرون فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا، وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة(255) وخيراً؟ فقال: (يا حصين، أن أبي وأباك في النار يا حصين، كم تعبد من إله؟) قال سبعاً في الأرض، وواحد في السماء.

---

254) صحيح مسلم، رقم 832، كتاب صلاة المسافرين.
255) حصينة: يعني عاقلاً متحصناً بدين آبائه وأجداده، ومعتقداتهم.

فقال: (فإذا أصابك الضر من تدعو)؟ قال : الذي في السماء. قال: (فإذا هلك المال من تدعو؟) قال: الذيفي السماء. قال: (فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك؟) قال: ولا واحدة من هاتين. قال: وعلمت أني لم أكلم مثله. قال: (يا حصين، أسلم تسلم) قال: إن لي قوماً وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: (قل: اللهم استهديك لأرشد أمري وزدني علماً ينفعني). فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم. فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك الحبيب محمد - ف - بكى، وقال: (بكيت من صنيع عمران دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة). فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: (قوموا فشيعوه إلى منزله) فلما خرج من سدة الباب رأته قريش، فقالوا صبأ وتفرقوا عنه)(256).وبالرغم من القبضة الحديدية التي فرضتها قريش علي الدعوة في مكة إلا أن ركب الداخلين في الإسلام كان يزداد يوماً بعد يوم فأسلم أبو ذر - ا – وكان منكراً لحال الجاهلية، ويأبى عبادة الأصنام وينكر على من يشرك بالله، وكان يصلي لله قبل إسلامه، بثلاث سنوات، دون أن يخص قبلة بعينها بالتوجه، ويظهر أنه كان على نهج الأحناف، ولما سمع بالنبي - ف - قدم إلى مكة وكره أن يسأل عنه حتى أدركه الليل،

256) ابن حجر العسقلاني ، الإصابة في تمييز الصحابة ، 337/1

فاضطجع فرآه علي - ا -، فعرف أنه غريب فاستضافه ولم يسأله عن شيء، ثم غادره صباحاً إلى المسجد الحرام فمكث حتى أمسى، فرآه عليّ فاستضافه لليلة ثانية، وحدث مثل ذلك في الليلة الثالثة ثم سأله عن سبب قدومه، فلما استوثق منه أبو ذر أخبره بأنه يريد مقابلة الحبيب محمد - ف -، فقال له علي: فإنه حق وهو رسول الله فإذا أصبحت فاتّبعني فإني إن رأيت شيئاً أخف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتبعني، فتبعه وقابل الحبيب محمد-ف- واستمع إلى قوله فأسلم، فقال له النبي - ف - أرجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري. فقال : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وثار القوم حتى أضجعوه)، فأتى العباس بن عبد المطلب فحذرهم من انتقام غفار والتعرض لتجارتهم التي تمر بديارهم إلى الشام، فأنقذه منهم(257)، وكان أبو ذر قبل مجيئه قد أرسل أخيه، ليعلم له علم النبي - ف - ويسمع من قوله ثم يأتيه، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر. فقال: ما شفيتني(258) مما أردت وعزم على الذهاب بنفسه للحبيب محمد - ف -، فقال أخوه له: (وكن على حذر من أهل مكة فإنهم قد شَنِفوا له(259) وتجهموا)(260).

---

257) صحيح البخاري (فتح الباري) ، 173/7.
258) ماشفيتني مما أردت: مابلغتني غرضي وأزلت عني هم .
259) وشنفوا له أي أبغضوه
260) صحيح مسلم (1923/4)

3ـ السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك

ولما رأت قريش أن الحبيب محمد ف ماض في دعوته ولم توقفه وسائلهم ولا أساليبهم في صد الدعوة ، سلكوا طرقا أخري لإيقاف الدعوة فأعملوا السخرية والتحقير والاستهزاء التي قصدوا بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي ف بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالمجنون

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ [سورة الحجر: الآية 6] ،

ويصمونه بالسحر والكذب

وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ [سورة ص: الآية 4]

،وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعلة هائجة

وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ [سورة القلم: الآية 51] ،

وكان إذا جلس وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا : هؤلاء جلساؤه

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ [سورة الأنعام: الآية 53]

,وكانوا كما قص الله علينا إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) [سورة المطفِّفين: الآية29-33]

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئًا فشيئًا حتى أثر ذلك في نفس رسول الله ف ، كما قال الله تعالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ [سورة الحجر: الآية 97] ،

ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال : فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) [سورة الحجر: الآية98- 99] ،

وقد أخبره من قبل أنه يكفيه هؤلاء المستهزئين حيث قال :

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (95) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (96) [سورة الحجر: الآية 95-96] ،

وأخبره أن فعلهم هذا سوف ينقلب وبالًا عليهم فقال :

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [سورة الأنعام: الآية 10].(261)

261) الرحيق المختوم ، ص 81

4ـ إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة :

وقد أكثروا من ذلك وتفننوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر في دعوته والتفكير فيها، فكانوا يقولون عن القرآن :

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ

سورة الأنبياء: الآية 5]

يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار، ويقولون :

بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ [سورة الأنبياء: الآية 5]

من عند نفسه ويقولون :

وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ [سورة النحل:الآية 103]

وقالوا : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا [سورة الفرقان: الآية 4]

أي اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه .

وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5) [سورة الفرقان: الآية 5]

وأحيانا قالوا : إن له جنًا أو شيطانًا يتنزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان . قال تعالى ردًا عليهم : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) [سورة الشعراء: الآية 221-222]

، أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطخ بالذنوب، وما جرّبتم علىّ كذبًا، وما وجدتم في فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان ؟

وأحيانًا قالوا عن الحبيب محمد ف : إنه مصاب بنوع من الجنون، فهو يتخيل المعاني، ثم يصوغها في كلمات بديعة رائعة كما يصوغ الشعراء، فهو شاعر وكلامه شعر . قال تعالى ردًا عليهم : وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) [سورة الشعراء: الآية 224-226]

فهذه ثلاث خصائص يتصف بها الشعراء ليست واحدة منها في النبي ف ، فالذين اتبعوه هداة مهتدون، متقون صالحون في دينهم وخلقهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وليست عليهم مسحة من الغواية في أي شأن من شئونهم، ثم النبي ف لا يهيم في كل واد كما يهيم الشعراء، بل هو يدعو إلى رب واحد، ودين واحد، وصراط واحد، وهو لا يقول إلا ما يفعل، ولا يفعل إلا ما يقول،

فأين هو من الشعر والشعراء ؟ وأين الشعر والشعراء منه .هكذا كان يرد عليهم بجواب مقنع حول كل شبهة كانوا يثيرونها ضد النبي ف والقرآن والإسلام .(262)

5 - تكذيبهم بالوحدانية واليوم الآخر :

لم يكن كفار مكة ينكرون بأن الله خلقهم وخلق كل شيء: قالتعالى:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [سورة لقمان: الآية 25] .

لكنهم كانوا يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله.

قال تعالى:

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [سورة الزّمر: الآية 3]

وقد انتقلت عبادة الأصنام إليهم من الأمم المجاورة لهم، ولهذا قابلوا الدعوة إلى التوحيد بأعظم إنكار وأشد استغراب قال تعالى:

---

262) الرحيق المختوم ، ص 82

وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (4) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (5) وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (6) مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (7) [سورة ص: الآية 4-7]

ولم يكن تصورهم لله تعالى ولعلاقته بخلقه صحيحًا، إذ كانوا يزعمون أن لله تعالى صاحبة من الجن، وأنها ولدت الملائكة، وأن الملائكة بنات الله -تعالى الله عما يقولون علوّا كبيراَ.

فكانت الآيات تنزل مبيَنة أن الله عز وجل خلق الجن والملائكة كما خلق الإنس وأنه لم يتخذ ولدًا، ولم تكن له صاحبة، قال تعالى:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (100) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (101) [سورة الأنعام: الآية100- 101]

ومبينةٌ أن الجن يقرون لله بالعبودية، وينكرون أن يكون بينهم وبينه علاقة نسب:

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ [سورة الصافات: الآية 158]

ومطالبةً المشركين بإتباع الحق وعدم القول بالظنون والأوهام:

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (27) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ۖ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (28) [سورة النجم: الآية 27-28]

ومموضحةً أنه لا يعقل أن يمنح الله المشركين البنين، ويكون له بنات، وهن أدنى قيمة في رأيهم من البنين:

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا [سورة الإسراء: الآية 40]

ومحملةً المشركين مسئولية أقوالهم التي لا تقوم على دليل:

وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ [سورة الزُّخرف: الآية 19]

أما دعوة الحبيب محمد ف إلى الإيمان باليوم الآخر، فقد قابلها المشركون بالسخرية والتكذيب:

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (7) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ [سورة سبأ: الآية 7-8]

فقد كانوا ينكرون بعث الموتى:

وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ [سورة الأنعام: الآية 29]

ويقسمون على ذلك بالأيمان المغلظة.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (38) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (39) [سورة النحل: الآية 38-39]

وكانوا يظنون أنه لا توجد حياة في غير الدنيا، ويطلبون إحياء آبائهم ليصدقوا بالآخرة: قال تعالى:

وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (24) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) [سورة الجاثية: الآية 24-27]

وفاتهم أن الذي خلقهم أول مرة قادر على أن يحييهم يوم القيامة، قال مجاهد وغيره: جاء أُبي بن خلف(263) إلى رسول الله ف وفي يده عظم رميم، وهو يفتته ويذروه في الهواء، وهو يقول: يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال ف : «نعم يميتك الله تعالى، ثم يبعثك، ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات(264)

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) [سورة يس: الآيات 77-79]

كانت أساليب القرآن الكريم في إقناع الناس بالبعث اعتمدت على خطاب العقل، والانسجام مع الفطرة والتجاوب مع القلوب، فقد ذكَّر الله عباده أن حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي به يعبدونه ويطيعونه ويتبعون أمره ويجتنبون نهيه، فمن العباد من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبغى، أفليس بعد أن يموت الطالح والصالح، ولا بد أن يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، قال تعالى:

أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (37) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (38) [سورة القلم: الآية 35-38]

---

263) وفي رواية عن ابن عباس أنه العاص بن وائل.

264) تفسير ابن كثير ، 581/3.

إن الملاحدة الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يظنون الكون خلق عبثًا وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد، ولا بين التقي والفاجر، قال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (27) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (28) [سورة ص: الآية27- 28]

وضرب القرآن الكريم للناس الأمثلة في إحياء الأرض بالنبات، وإن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية

فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [سورة الروم: الآية 50]

وذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه إحياء بعض الأموات في هذه الحياة الدنيا، فأخبر الناس في كتابه عن أصحاب الكهف، بأنه ضرب على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة

قال تعالى: ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا [سورة الكهف: الآية 12].

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) [سورة الكهف: الآية 19]

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا [سورة الكهف: الآية 25]

وغير ذلك من الأدلة والبراهين التي استخدمها الحبيب محمد ﷺ في مناظراته مع زعماء الكفر والشرك.(265)

265) الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 145 – 146

6 ـ الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن، ومعارضته بأساطير الأولين :

كان المشركون بجنب إثارة هذه الشبهات يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن الحبيب محمد ف يتهيأ للدعوة، أو إذا رأوه يصلى ويتلو القرآن .

قال تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ [سورة فُصِّلَت: الآية 26]

حتى إن الحبيب محمد ف لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديهم إلا في أواخر السنة الخامسةمن النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة

وكان النضر بن الحارث، أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وأسفنديار، فكان إذا جلس الحبيب محمدف مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نقمته خلفه النضر ويقول : أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وأسفنديار ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثًا مني .

وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قَيْنَةً، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى :

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (6) [سورة لقمان: الآية 6] .(266)

7 – الاضطهاد والتعذيب :

استمر المشركون في إتباع هذه الأساليب التي ذكرناها لإحباط الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب لا يتجاوزونها إلي غيرها من الوسائل ، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لم تجد نفعًا في إحباط الدعوة الإسلامية ركنوا إلي التعذيب والاضطهاد . والحقيقة أن المشركين لم يفتروا عن أذى رسول الله - ف - منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم وأظهره الله عليهم، ويدل على ذلك مبلغ هذا الأذى تلك الآيات الكثيرة التي كانت تتنزل عليه في هذه الفترة تأمره بالصبر، وتدله على وسائله، وتنهاه عن الحزن، وتضرب له أمثلة من واقع إخوانه المرسلين مثل قوله تعالى: وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا [سورة المزّمل: الآية 10]

266) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 299 – 300 ، 358 ، الرحيق المختوم ، ص 82

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا [سورة الإنسان: الآية 24]
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ [سورة النمل: الآية 70]
مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ [سورة فُصِّلَت: الآية 43]

وبدأوا بالاعتداء الجسدي علي الحبيب محمد ف ، فيروي أن أبو جهل قال : هل يعفر محمد وجهه(267) بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال فأتى رسولالله - ف - وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم (268) منه إلا وهو ينكص على عقبيه(269) ويتقي بيديه. قال: فقيل له: مالك: فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولا وأجنحة، فقال رسول الله - ف - : (لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)(270).

وفي حديث ابن عباس قال: كان النبي يصلي فجاء أبو جهل: فقال: (ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي - ف - فزبره(271)

267) يعفر وجهه: أي يسجد ويلصق وجهه بالعفو وهو التراب.
268) فجأهم: بغتم.
269) عقبيه: رجع يمشي الى الوراء.
270) مسلم، كاب صفات المنافقين، باب قوله إن الانسان ليطغى رقم 2797.
271) زبره: نهره.

فقال: أبو جهل: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تعالى:

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) [سورة العلق: الآية17- 18]

قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله)(272).

وقال ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله ف في بيته أبا لهب، والحكم بن أبي العاص بن أمية، وعقبة بن أبي معيط، وعدى بن حمراء الثقفي، وابن الأصداء الهذلي ـ وكانوا جيرانه ـ لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص، فكان أحدهم يطرح عليه ف رحم الشاة وهو يصلى، وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له، حتى اتخذ رسول الله ف حجراَ ليستتر به منهم إذا صلى فكان رسول الله ف إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود، فيقف به على بابه، ثم يقول : (يا بني عبد مناف، أي جوار هذا ؟) ثم يلقيه في الطريق .

وازداد عقبة بن أبي مُعَيْط في شقاوته وخبثه، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ا: أن النبي ف كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس؛ إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجيء بسَلاَ جَزُور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به فنظر، حتى إذا سجد النبي وضع على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر، لا أغنى شيئًا، لو كانت لي منعة قال : فجعلوا يضحكون،

272) الترمذي رقم 3349، حسن صحيح غريب.

ويحيل بعضهم على بعضهم [أي يتمايل بعضهم على بعض مرحًا وبطرًا] ورسول الله ف ساجد، لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة فطرحته عن ظهره، فرفع رأسه، ثم قال : [اللهم عليك بقريش] ثلاث مرات، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم، قال : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى : (اللّهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط) ـ وعد السابع فلم نحفظه ـ فو الذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عدّ رسول الله ف صرعى في القَليب(273)،- قليب بدر- ثم قال رسول الله - ف -: وأتبع أصحاب القليب لعنة)(274).

وقد بينت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذي رمى الرفث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل(275)، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول، وشق عليهم الأمر، لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة(276).

273) القليب: البئر المفتوح.
274) البخاري (فتح الباري 594/1)، مسلم (1418/3-1420).
275) صحيح مسلم (1420/3).
276) الصلابي ، السيرة النبوية ، 1 / 173

واجتمع أشراف قريش يوماً في الحجر، فذكروا رسول الله - ف - فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط سفه أحلامنا وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم! فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله - ف - فوثبوا وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون، أنت الذي تقول كذا وكذا -لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم- فيقول: نعم، أنا الذي أقول ذلك ثم أخذ رجل منهم بمجمع ردائه؛ فقام أبو بكر - ا- دونه وهو يبكيويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله(277).

وكان علي رأس الذين آذو الحبيب محمد ف عمه أبو لهب وكان من أشد الناس عداوة له ، وقد أسلفنا ما فعل بالحبيب محمد ف علي الصفا ، وكذلك كانت امرأته أم جميل من أشد الناس عداوة للنبي - ف -؛ وكانت تسعى بالإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وتضع الشوك في طريقه، والقذر على بابه فلا عجب أن نزل فيهم

قول الله تعالى تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (5) [سورة المَسَد] فحين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله - ف - وهو جالس عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة؛ فلما وقفت عليهما قالت: يا أبا بكر! أين صاحبك؟

277) إبراهيم العزي ، صحيح السيرة النبوية، ص96.

فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه! ثم انصرفت؛ فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: لقد أخذ الله ببصرها عني وكانت تنشد مذمم أبينا، ودينه قلينا، وأمره عصينا، وكان رسول الله - ف - يفرح لأن المشركين يسبون مذمماً يقول : (ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً وأنا محمد)(278).

وقد بلغ من أمر أبي لهب أنه كان يتبع رسول الله - ف - في الأسواق والمجامع، ومواسم الحج ويكذبه(279).

كان أبو لهب يفعل كل ذلك وهو عم رسول الله ف وجاره، كان بيته ملصقا ببيته، كما كان غيره من جيران رسول الله ف يؤذونه وهو في بيته .

هذا بعض ما لاقاه رسول الله - ف - من أذية المشركين مع ماله ف من عظيم القدر ومنتهى الشرف،ومع ماله من منعة أبي طالب ، إلا أنه قد حظي من البلاء بالحمل الثقيل والعناء الطويل منذ أول يوم صدع فيه بالدعوة، أما بالنسبة إلي المسلمين – ولا سيما الضعفاء منهم –

---

278) صحيح البخاري (فتح الباري 554/6-555).

279) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، 293/1.

فإن الإجراءات كانت أقسى من ذلك وأمر ، ففي الوقت الذي قامت كل قبيلة تعذب من دان منها بالإسلام أنواعاً من التعذيب ، ومن لم يكن له قبيلة فأجرت عليه الأوباش والـ سادات ألواناً من الاضطهاد ، يفذع عن ذكرها قلب الحليم .

فقد كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به.(280)

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته

وكان مصعب بن عمير - ا - أنعم غلام بمكة، وأجوده حلة، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه مليئة كثيرة المال تكسوه أحسن ما يكون من الثيات أرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي، من النعال، وبلغ من شدة كلف أمه به أنه يبيت وقعْبُ الحيس(281) عند رأسه فإذا استيقظ من نومه أكل(282)، ولما علم أن رسول الله - ف - يدعو إلى الإسلام في دار الأرقم بن أبي الأرقم دخل عليه فأسلم وصدّق به، وخرج فكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله - ف - سراً، فبصر به عثمان بن طلحة(283) يصلي فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوساً حتى خرج

---

280) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 320

281) القعب : القدح الغليظ، والحيس: تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن.

282) الروض الآنف ، 2 / 195 ، الرحيق المختوم ، ص 88

283) سير أعلام النبلاء للذهبي ، 3/10-12

إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى(284).

وكان صهيب بن سنان الرومي يُعذَّب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول .

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلًا، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه، وهو يقول : أَحَدٌ أَحَدٌ، وكان أمية يشده شدًا ثم يضربه بالعصا، و يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع . وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك : أحد،أحد، ويقول لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها . ومر به أبو بكر يوما وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود، وقيل : بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه .(285) وكان عمار بن ياسر ا مولى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون ـ وعلى رأسهم أبو جهل ـ يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها . ومر بهم النبي ف وهم يعذبون فقال : (صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة) ، فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية ـ أم عمار ـ في قبلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم،

284) الروض الآنف ، 2 / 195 ، الرحيق المختوم ، ص 88
285) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 317

وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى وبغطه في الماء حتى كان يفقد وعيه . وقالوا له : لا نتركك حتى تسب محمدًا أو تقول في اللات والعزى خيرا، فوافقهم على ذلك مكرهًا، وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبي ف . فأنزل الله :

مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (106) [سورة النحل: الآية 106]

(286) وكان أبو فُكَيْهَةَ ـ واسمه أفلح ـ مولى لبني عبد الدار، وكان من الأزد . فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حر شديد وفي رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجله بحبل، ثم جروه وألقوه في الرمضاء وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله.(287) وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سِباع الخزاعية، وكان حدادًا فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه، ليكفر بمحمد ف ،

286) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 319 – 320
287) رحمة للعالمين ، 1 / 57

فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكان المشركون أيضًا يعذبونه فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار، ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا وَدَكَ ظهره .(288) وكان الرسول - ف - يألف خباباً ويتردد عليه بعد أن أسلم، فلما علمت مولاته بذلك، وهي أم أنمار الخزاعية، أخذت حديدة قد أحمتها، فوضعتها على رأسه، فشكا خباباً ذلك إلى رسول الله - ف -، فقال: اللهم انصر خباباً فاشتكت مولاته رأسها، فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها اكتوي، فجاءت إلى خباب ليكويها، فكان يأخذ الحديدة قد أحماها فيكوي بها رأسها، وإن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يعتبر ما أقرب فرج الله ونصره من عباده المؤمنين الصابرين فانظر كيف جاءت إليه بنفسها تطلب منه أن يكويها مع رأسها . (289)

هذا ولم يكن التعذيب والأذى مقصوراً على رجال المسلمين دون نسائهم وإنما طال النساء أيضاً قسط كبير من الأذى والعنت بسبب إسلامهنّ، كسمية بن خياط، وفاطمة بنت الخطاب، ولبيبة جارية بني المؤمل، وزنيرة الرومية، والنهدية وابنتها، وأم عُبيس، وحمامة أم بلال وغيرهنّ(290).

288) رحمة للعالمين ، 1 / 57 ، تلقيح فهوم أهل الأثر ، ص 60 ، محنة المسلمين في العهد المكي ، ص95
289) البخاري، مناقب الأنصار، باب مالقي النبي - ف- وأصحابه (238/4).
290) محنة المسلمين في العهد المكي، ص116، 117.

وكانت زِنِّيرَةُ أمَةً رومية قد أسلمت فعذبت في الله، وأصيبت في بصرها حتى عميت، فقيل لها : أصابتك اللات والعزى، فقالت : لا والله ما أصابتني، وهذا من الله، وإن شاء كشفه، فأصبحت من الغد وقد رد الله بصرها، فقالت قريش : هذا بعض سحر محمد (291).

وأسلمت أم عُبَيس، جارية لبني زهرة، فكان يعذبها المشركون، وبخاصة مولاها الأسود بن عبد يغوث، وكان من أشد أعداء رسول الله ف ، ومن المستهزئين به .

وأسلمت جارية عمر بن مؤمل من بني عدى، فكان عمر بن الخطاب يعذبها ـ وهو يومئذ على الشرك ـ فكان يضربها حتى يفتر، ثم يدعها ويقول : والله ما أدعك إلا سآمة، فتقول : كذلك يفعل بك ربك . وممن أسلمن وعذبن من الجوارى : النهدية وابنتها، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار .

وممن عذب من العبيد : عامر بن فُهَيْرَة، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدرى ما يقول . واشترى أبو بكر ا هؤلاء الإماء والعبيد ي وعنهن أجمعين فأعتقهم جميعًا . وقد عاتبه في ذلك أبوه أبو قحافة وقال : أراك تعتق رقابًا ضعافًا فلو أعتقت رجالًا جلدًا لمنعوك . قال : إني أريد وجه الله . فأنزل الله قرآنًا مدح فيه أبا بكر، وذم أعداءه .

قال تعالى : فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (16) [سورة الليل: الآية14- 16]

---

291) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 319

وهو أمية بن خلف، ومن كان على شاكلته

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (21) [سورة الليل: الآية 17-21]

وهو أبو بكر الصديقا .(292)

ونال أبو بكر الصديق ا أيضًا قسطا من التعذيب فقد روت عائشة رضي الله تعالى عنها أنه لمّا اجتمع أصحاب النبي - ف -، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألحّ أبو بكر - ا - على رسول الله - ف - في الظهور، فقال (يا أبا بكر أنا قليل). فلم يزل أبو بكر يلح حتى ظهر رسول الله - ف -، وتفرق المسلمين في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته، وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ف جالس، فكان أوّل خطيب دعا إلى الله تعالى والى رسوله ف ، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين، فضربوه في نواحي المسجد ضرباً شديداً، ووطئ أبو بكر وضرب ضرباً شديداً، ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويُحرَفهما لوجهه، ونزا على بطن أبي بكر - ا-، حتى ما يعرف وجهه من أنفه، وجاءت بنو تيم يتعادون فأجلت المشركين عن أبي بكر،

292) الروض الآنف ، 2 / 86 ، محمد مسعد ياقوت ، نبي الرحمة ، ص 21 ، الرحيق المختوم ، ص 89

وحَمَلَتْ بنو تيم أبا بكر في ثوب حتى أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة فرجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة (والده) وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب،

فتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله - ف -؟ فمسّوا منه بألسنتهم وعذلوه، وقالوا لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاًأو تسقيه إياه. فلما خلت به ألحت عليه، وجعل يقول: ما فعل رسول الله - ف -؟ فقالت: والله مالي علم بصاحبك. فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه؛ فخرجت حتى جاءت أم جميل؛ فقالت: إن أبا بكر سألك عن محمد بن عبد الله. فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك. قالت: نعم، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دَنِفاً، فدنت أم جميل، وأعلنت بالصياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق وكفر إنني لأرجوا أن ينتقم الله لك منهم؛ قال: فما فعل رسول الله - ف -؟ قالت: هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار الأرقم. قال: فإن لله عليّ أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله - ف -، فأمهلتا حتى إذا هدأت الرَجل وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما، حتى أدخلتاه على رسول الله - ف -،

فقال: فأكب عليه رسول الله - ف - فقبله، وأكب عليه المسلمون، ورقّ له رسول الله - ف - رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي وأمي يا رسول الله، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أمي برة بولدها وأنت مبارك فادعها إلى الله، وأدع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار. قال: فدعا لها رسول الله ف ودعاها إلى الله فأسلمت(293).

ولما زاد ضغط المشركين على ضعفاء المسلمين ولقوا منهم شدة، جاء خباب إلى رسول الله - ف - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقال له: ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا، فقعد الحبيب محمد - ف - وهو محمرّ وجهه، قال: (كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيَشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)(294).

والحاصل أنهم لم يعلموا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال، وكان ذلك سهلًا ميسوراً بالنسبة لضعفاء المسلمين،

293) ابن كثير ، السيرة النبوية ، 439/1-441 ؛ البداية والنهاية ، 30/3
294) البخاري، مناقب الأنصار، باب مالقي النبي - ف- وأصحابه (238/4).

ولا سيما العبيد والإماء منهم، فلم يكن من يغضب لهم ويحميهم، بل كانت السادة والرؤساء هم أنفسهم يقومون بالتعذيب

ويغرون الأوباش، ولكن بالنسبة لمن أسلم من الكبار والأشراف كان ذلك صعباَ جدًا؛ إذ كانوا في عز ومنعة من قومهم، ولذلك قلما كان يجترىء عليهم إلا أشراف قومهم، مع شيء كبير من الحيطة والحذر .

8 - الحصار الاقتصادي والاجتماعي في العام السابع من البعثة (295)

ازداد إيذاء المشركين من قريش أمام صبر الحبيب محمد ف والمسلمين على الأذى، وإصرارهم في الدعوة الى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي الذي ضربته قريش ظلماً وعدواناً على النبي ف وأصحابه ومن عطف عليهم من قرابتهم . قال الزهري: (ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله - ف - علانية؛ فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب

295) قبيل هذا الحصار وقعت عدة أحداث مهمة مثل الهجرة إلي الحبشة ومحاولة قريش إرجاع من هاجر من المسلمين إلي الحبشة ، وإسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب رضي الله عنهما، ولكن سياق الحديث إقتضي بعض التقديم والتأخير في السنوات حتي يسهل فهم الواقع والأحداث .

وأمرهم أن يدخلوا رسول الله - ف - شعبهم ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ف فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله - ف - للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق؛ لا يتقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل(296).

وفي رواية: (على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، لا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم(297).

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، وأشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركوا طعاماً يقدم من مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ف .

296) السرة النبوية لابن كثير ، 43/2-72، الروض الأنف ، 101/2-129.
297) السيرة النبوية لابن هشام ، 350/1؛ زاد المعاد ، 46/2؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير ، 87/2.

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله - ف - فأتى فراشه حتى يراه من أرد به مكراً أو غائلة، فإذا نام الناس أخذ أحد بنيه أو أخواته أو بني عمه فاضطجع على فرش رسول الله - ف -، وأمر رسوله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها(298).

واشتد الحصار على الصحابة وبني هاشم وبني المطلب حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقعة شيء تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها ثم يسحقها، ثم يستفها، ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع(299)!

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناساً من أشراف قريش وكان الذي تولى الإنقلاب الداخلي لنقض الصحيفة هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثيات وتنكح النساء، وأخوالك

---

298) فقه السيرة النبوية للغضبان، ص180.

299) السيرة النبوية دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 4 /127

حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً،

قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها؛ فقالله: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أبغنا ثالثاً.

فذهب إلى المُطْعِم بن عدي فقال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهممن هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد قال : قد وجدت لك ثانياً، قال من ؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً، قال : قد فعلت قال: من؟ قال زهير بن أبي أمية، فقال أبغنا رابعاً، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحد يعين على ذلك؛ قال: نعم: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: أبغنا خامساً فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقهم فقال له:

وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد، قال: نعم ، ثم سمّى له القوم؛ فاتَّعدوا خطم الحَجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها،

وقال زهير: أما أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت فقال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نُقرِّ به، فقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذلك من قال غير ذلك، نبرأ من الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تشوور فيه في غير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)(300) وروى ابن إسحاق إن الله -عز وجل- أرسل على الصحيفة الأرضة فلم تدع فيها اسماً لله عز وجل إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطعية والبهتان وأخبر رسول الله ف بذلك عمه فذهب أبو طالب إلى قومه وأخبرهم بذلك

وقال لهم: فإن كان كاذباً فلكم علي أن أدفعه إليكم تقتلونه وإن كان صادقاً فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق وأخذوا عليه فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله ف فقال المطعم بن عدي وهشام بن عمرو: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالئ أحداً في فساد أنفسنا وأشرافنا. وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش فخرجوا من الشعب(301).

300) انظر: السيرة النبوية لابن كثير ، 2/43-50، 67-69.

301) السـير والمغازي لابن إسـحاق، ص156-162، السـيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 4 /129

الهجرة الأولي إلي الحبشة :

لما جاءت رسالة الإسلام وقف المشركون في وجهها وحاربوها، وكانت المواجهة في بداية أمرها محدودة، إلا أنها سرعان ما بدأت تشتد وتتفاقم يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر، حتى ضيّقت قريش الخناق على المسلمين واضطهدتهم وأرهقتهم، فضاقت عليهم مكة بما رحبت، وصارت الحياة في ظل هذه المواجهة جحيماً لا يطاق، فأخذ المسلمون يبحثون عن مكان آمن يلجئون إليه، ويتخلصون به من عذاب المشركين واضطهادهم.

في ظل تلك الظروف التي يعاني منها المسلمون، نزلت سورة الكهف، تلك السورة التي أخبرت بقصة الفتية الذين فروا بدينهم من ظلم مَلكِهِم، وأووا إلى كهف يحتمون به مما يراد بهم، كان في هذه القصة تسلية للمؤمنين، وإرشاداً لهم إلى الطريق الذي ينبغي عليهم أن يسلكوه للخروج مما هم فيه. لقد عرضت قصة أصحاب الكهف نموذجاً للإيمان في النفوس المخلصة، كيف تطمئن به، وتؤثره على زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وكيف أن الله تعالى يرعى هذه النفوس المؤمنة ويقيها الفتنة، ويشملها برحمته ورعايته

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا [سورة الكهف: الآية 16]

لقد وضَّحت هذه القصة للمؤمنين طريق الحق والباطل، وبيّنت أنه لا سبيل للالتقاء بينهما بحال من الأحوال، وإنما هي المفاصلة والفرار بالدين والعقيدة، وانطلاقاً من هذه الرؤية القرآنية أمر النبي - ف - المسلمين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة، وقد وصفت أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي - ف - هذا الحدث فقالت: (لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ف- وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، والفتنة في دينهم، وأن رسول الله - ف - لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله - ف - في منعة من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله عليه وسلم إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا إليها أرسالاً - أي جماعات - حتى اجتمعنا بها فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمِنًا على ديننا ولم نخش منه ظلماً)(302) قال الله تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [سورة النحل: الآية 41]

302) رواه البيهقي بسند حسن .

قال قتادة :" المراد أصحاب النبي - ف - ، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة، ثم بوأهم الله تعالى دار الهجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين " .

وكان الذي دعى الصحابة لتلك الهجرة عدة أساب، منها شدة العذاب الذي لاقاه الصحابة من المشركين، حيث استخدم المشركون شتى أنواع العذاب لكي يفتنوا الصحابة عن دينهم، وكان نشر الدعوة خارج مكة المكرمة، وتكوين قاعدة تحمي العقيدة سبباً رئيساً آخر لتلك الهجرة.

ولم يكن اختيار الحبشة موطناً للهجرة من قبيل المصادفة بل جاء اختيارها بعناية وتوفيق من الله عز وجل ، فقد عرف عن الحبشة أنها بلد آمن ، ولا تخضع ولا تدين لقريش بالولاء ، ولا تستطيع قريش أن تسوءها في تجارتها ولا جوارها كما عرف عن حاكمها النجاشي العدل ، وأنه لا يظلم عنده أحد ، كما قال الحبيب محمد ف " (أرض صدق _ الحبشة _ وأن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد " (303)

---

303) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 397

و هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة في السنة الخامسة للبعثة، وكان هذا الفوج مكوناً من اثني عشر رجلاً و أربع نسوة، كان في مقدمتهم عثمان بن عفانا، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله - ف - ، وكان رحيلهم تسللاً تحت جنح الظلام حتى لا تشعر بهم قريش،

فخرجوا إلى البحر عن طريق جدة، فوجدوا سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، ولما علمت قريش بخبرهم خرجت في إثرهم، وما وصلت إلى الشاطئ إلا وكانوا قد غادروه في طريقهم إلى الحبشة حيث وجدوا الأمن والأمان، ولقوا الحفاوة والإكرام من ملكها النجاشي الذي كان لا يظلم عنده أحد، كما أخبر بذلك النبي ف .(304)

304)، ابن هشام ، السيرة النبوية ، 280/1 ، أحزمي سامعون، الهجرة في القرآن الكريم، ص290.

أسماء المهاجرين

وقد شهد الهجرة الأولي إلى الحبشة من الرجال: عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس وعبد الله بن عوف بن عوف ابن عبد بن الحرث بن زهرة والزبير بن العوام بن خويلد بن أسد وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ومصعب بن عمير بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار وأبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم و عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح وعامر بن ربيعة، حليف آل الخطاب، من عنز بن وائل سهيل بن بيضاء وهو: سهيل بن وهب بن ربيعة بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث وأبو سبرة بن أبي رهم بن عبد العزى بن أبي قيس عبد وُدّ بن نصر بن مالك ابن حسل بن عامر.

فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة ومن النساء:

رقية بنت النبي ف وسهلة بنت سهيل بن عمرو، أحد بني عامر بن لؤي، ولدت له بأرض الحبشة محمد بن أبي حذيفة وأم سلمة بنت أبي أمية ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، امرأة أبي سلمة وليلى بنت أبي حثمة بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عوف بن عبيد بن عويج بن عدي بن كعب امرأة عامر بن ربيعة وأم كلثوم بنت سهل بن عمرو ابن عبد شمس، امرأة أبي سبرة بن أبي رهم(305).

305) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 3/96-97 ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1/344-352.

والحقيقة أن الهجرة الأولى إلى الحبشة لم تكن ضنا بحياة ذلك الرهط من المسلمين الأولين، وإنما كانت هجرة في سبيل العقيدة بذلا واحتمالا، وسلاحا شهروه في وجه الوثنية الغاشمة، لتدرك مدى ما يطيق المؤمنون احتماله من التضحية والبذل في سبيل ما آمنوا به ، والمتأمل في أسماء وشخصيات طلائع الهجرة الأولي إلي الحبشة لا يجد فيهم أحداً من الموالي الذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشد من غيرهم، كبلال، وخباب، وعمار ي، بل نجد غالبيتهم من ذوي النسب والمكانة في قريش، ويمثلون عدداً من القبائل، صحيح أن الأذى شمل ذوي النسب والمكانة كما طال غيرهم، ولكنه كان على الموالي أشد في بيئة تقيم وزناً للقبيلة وترعى النسب، وبالتالي فلو كان الفرار من الأذى وحده هو السبب في الهجرة، لكان هؤلاء الموالي المعذبون أحق بالهجرة من غيرهم، والدليل علي ذلك أن معظم كتاب السيرة قد ذكروا شدة إيذاء كفار قريش للمستضعفين من المسلمين ، ولم يتحدث أحد منهم عن هجرة أحد من هؤلاء المستضعفين إلي الحبشة (306). لم يخيب النجاشي أمل المسلمين ، فوجدوا عنده النصرة والتمكين ، وظللتهم سحابة عدله ،

306) البلاذري، الأنساب ، 1/156-198، ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1/392-396.

وكان من قدر الله أن حدث تغير كبير على حياة المسلمين في مكة ونشأت ظروف لم تكن موجودة من قبل، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدعوة في مكة، حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله ف عصبية لابن أخيه، ثم شرح الله صدره للإسلام،

فثبت عليه، وكان حمزة أعز فتيان قريش وأشدهم شكيمة، فلما دخل في الإسلام عرفت قريش أن رسول الله ف قد عز وامتنع وأن عمه سيمنعه ويحميه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه(307).

307) محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول ف، ص90.

إسلام حمزة بن عبد المطلب

وفي الوقت الذي وجد فيه المهاجرون إلي الحبشة الدعم والتأييدمن النجاشي ، كان المسلمون في مكة يحيط بهم الضعف والخوف ويئنون من ظلم المشركين وطغيانهم، ولا يجدون ملجأ من البأساء إلا إلى الضراء، وفي وسط هذه الظلمة شع نور أضاء للمسلمين طريق الدعوة ، تمثل هذا النور في إسلام حمزة بن عبد المطلب عم الرسول -ف - وعمر بن الخطاب -ا - فكان إسلامهما فتحًا وأساسًا متينًا، أعز الله به الإسلام والمسلمين.

فأما عن إسلام حمزة: فقد كان في مبدأ أمره عن حمية واندفاع بسبب العصبية القبلية التي كانت تمتلئ بها نفوس العرب في ذلك الحين؛ ولكن لم يلبث أن شرح الله صدره للإسلام فمضى في طريق الحق لا يخشى فيه لومة لائم، وجاهد في سبيل الله حتى قضى نحبه ولقي ربه.

وقد كان إسلام حمزة في السنة السادسة من البعثة النبوية، وذلك أن أبا جهل مر بمحمد -ف - يومًا عند الصفا، فسبه وشتمه وأسمعه ما يكره فأعرض عنه النبي -ف - ولم يرد عليه بكلمة،ثم انصرف ، وكان حمزة رجلًا قويًا ذا ولع بالصيد... ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب األن أقبل متوشحًا قوسه راجعا من قنص له

وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له فكان إذا رجع من قنصه لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم

وكان أعز قريش وأشدها شكيمة وكان يومئذ مشركا على دين قومه فلما مر بمولاة عبد الله بن جدعان في مسكن لها على الصفا ، وكانت تسمع ما يقول أبو جهل - وقد قام رسول الله ف فرجع إلى بيته - فقالت له :يا أبا عمارة ولو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبي الحكم آنفا قبيل وجده ههنا فآذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد . فأحتمل حمزة الغضب فخرج سريعا لا يقف على أحد كما كان يضع يريد الطواف بالبيت معدا لأبي جهل أن يقع به . فلما دخل المسجد نظر إليه جالسا في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة شجه بها شجة منكرة وقام رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت (308)

308) كان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي ﷺ قد صبأ عنه أنه خرج من دين إلى دين كما تصبأ النجوم أي تخرج من مطالعها . وكانت العرب تسمي النبي ﷺ الصابئ لأنه خرج من دين قريش إلى الإسلام

فقال حمزة وما يمنعني وقد استبان لي منه ذلك . أنا أشهد أنه رسول اللهف وأن الذي يقول الحق فو الله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين . قالأبو جهل دعوا أبا عمارة فإني والله لقد سببت ابن أخيه سبا قبيحا وثبت حمزة على إسلامه .فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ف قد عز وامتنع وأن حمزة سيمنعه

فكفوا عن بعض ما كانوا يتناولونه به ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وأبلى فيها بلاء عظيما مشهورا وقاتل يوم بدر بسيفين وشهد أحدا فقتل بها يوم السبت النصف من شوال من السنة الثالثة من الهجرة بعد أن قتل أحد وثلاثين ودفن عند أحد في موضعه وكان عمره تسع وخمسين سنة .

تألمت قريش وأصابها هم عظيم بإسلام حمزة، فقد عرفت أن رسول الله ف عز وامتنع بإسلام هذا البطل(309).

309) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 365

إسلام عمر بن الخطاب

أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة . بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة ا وكان النبي فقد دعا الله تعالى لإسلامه . فقد أخرج الترمذي عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود وأنس أن النبي ف قال : (اللّهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام) فكان أحبهما إلى الله عمر ا .

كان ا معروفًا بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وطالما لقى المسلمون منه ألوان الأذى، والظاهر أنه كانت تصطرع في نفسه مشاعر متناقضة؛ احترامه للتقاليد التي سنها الآباء والأجداد وتحمسه لها، ثم إعجابه بصلابة المسلمين وباحتمالهم البلاء في سبيل العقيدة، ثم الشكوك التي كانت تساوره ـ كأي عاقل ـ في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره، ولهذا ما إن يَثُور حتى يَخُور وخلاصة الروايات ـ مع الجمع بينها ـ في إسلامه ا: أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبي ف قائم يصلي وقد استفتح سورة الْحَاقَّةُ (1) [سورة الحاقة: الآية 1] ،

فجعل عمر يستمع إلى القرآن ويعجب من تأليفه قال : فقلت ـ أي في نفسي : هذا والله شاعر، كما قالت قريش قال : فقرأ

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (41) [سورة الحاقة: الآية 40-41]

قال : قلت : كاهن . قال :

وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (42) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (43) [سورة الحاقة: الآية 42-43]

إلى آخر السورة . قال : فوقع الإسلام في قلبي .

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية، وعصبية التقليد، والتعاظم بدين الآباء هي غالبة على مخ الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه، فبقى مجدًا في عمله ضد الإسلام غير مكترث بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة .

وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله ف أنه خرج يومًا متوشحًا سيفه يريد القضاء على النبي ف ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوي، أو رجل من بني زهرة، أو رجل من بني مخزوم فقال : أين تعمد يا عمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمدًا . قال : كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمدًا ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي كنت عليه، قال : أفلا أدلك على العجب يا عمر ! إن أختك وخَتَنَكَ قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دامراً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة فيها : يقرئهما إياها ـ

وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن ـ فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، وسترت فاطمة ـ أخت عمر ـ الصحيفة وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم ؟ فقالا : ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما قد صبوتما . فقال له ختنه (310) : يا عمر، أرأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدًا . فجاءت أخته فرفعته عن زوجها فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها ـ وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها فقالت، وهي غضبى : يا عمر، إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله . فلما يئس عمر، ورأي ما بأخته من الدم ندم واستحيا، وقال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه، فقالت أخته : إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ :

فقال : أسماء طيبة طاهرة . ثم قرأ طه (1) [سورة طه: الآية 1]

حتى انتهي إلى قوله : إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي [سورة طه: الآية 14]

310) الختن : قريب الزوجة كأبيها وأخيها ، وزوج الابنة ، وزوج الأخت

فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دلوني على محمد . فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال : أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسولفلك ليلة الخميس : (اللّهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام) ، ورسول الله ف في الدار التي في أصل الصفا

فأخذ عمر سيفه، فتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب، فرآه متوشحًا السيف، فأخبر رسول الله ف واستجمع القوم، فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا : عمر ؟ فقال : وعمر ؟ افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه ورسول الله ف داخل يوحى إليه، فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحمائل السيف، ثم جبذه جبذة شديدة فقال : (أما أنت منتهياً يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم، هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب) ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله . وأسلم، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد .

كان عمر ا ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين وشعورا لهم بالذلة والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرفًا وسروراً .

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ف عداوة، قال : قلت : أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه فخرج إليّ، وقال : أهلًا وسهلًا، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك إني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب في وجهي وقال : قبحك الله، وقبح ما جئت به .

وذكر ابن الجوزي أن عمر ا قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت ـ أي حين أسلمت ـ إلى خالي ـ وهو العاصي بن هاشم ـ فأعلمته فدخل البيت، قال : وذهبت إلى رجل من كبراء قريش ـ لعله أبو جهل ـ فأعلمته فدخل البيت .

وفي رواية لابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر بن الخطاب لم تعلم قريش بإسلامه، فقال : أي أهل مكة أنشأ للحديث ؟فقالوا : جميل بن معمر الجمحى . فخرج إليه وأنا معه، أعقل ما أرى وأسمع فأتاه، فقال : يا جميل، إني قد أسلمت، قال : فو الله ما رد عليه كلمة حتى قام عامدًا إلى المسجد فنادى [بأعلى صوته] أن : يا قريش، إن ابن الخطاب قد صبأ فقال عمر ـ وهو خلفه : كذب، ولكنى قد أسلمت [وآمنت بالله وصدقت رسوله]

فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، وطَلَح ـ أي أعيا ـ عمر، فقعد، وقاموا على رأسه، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا . وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله .

روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال : بينما هو ـ أي عمر ـ في الدار خائفًا إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو،وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحريرـ وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية ـ فقال له : ما لك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلوني إن أسلمت، قال : لا سبيل إليك ـ بعد أن قالها أمنت ـ فخرج العاص، فلقى الناس قد سال بهم الوادي، فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : هذا ابن الخطاب الذي قد صبأ، قال : لا سبيل إليه، فَكَرّ الناس . وفي لفظ في رواية ابن إسحاق : والله، لكأنما كانوا ثوبًا كُشِطَ عنه .هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال : سألت عمر بن الخطاب : لأي شيء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام ـ ثم قص عليه قصة إسلامه . وقال في آخره : قلت ـ أي حين أسلمت : يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟

قال : (بلى، والذي نفسي بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم) ، قال : قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر له كديد ككديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال : فنظرت إلىّ قريش وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسماني رسول الله ف (الفاروق) يومئذ .

وكان ابن مسعود ايقول : ما كنا نقدر أن نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر

وعن صهيب بن سنان الرومي ا قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقًا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به . وعن عبد الله بن مسعود قال : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر(311) .

---

311) الرحيق المختوم ، ص 99 -102

الهجرة الثانية إلي الحبشة :

علي ما يبدو أن أنباء إسلام حمزة وعمر م قد ترامت إلي أسماع مهاجري الحبشة ، وقد شعروا بالعزة والمنعة ، ولا شك أنهم قد فرحوا بذلك كثيراً، وهم الذين كانت تهفوا قلوبهم وأسماعهم إلي مهبط الوحي وإلى الحبيبب محمد ف ويتحرقون حنينا إلي الوطن ، وهو فطرة فطر الله عليها جميع المخلوقات، وعلي ما يبدو أن ذلك قد شجعهم علي العودة إلى حيث الوطن العزيز مكة أم القرى، وإلى حيث يوجد الأهل والعشيرة فعادوا إلى مكة حاملين معهم آمالا وأحلاما للإسلام بعد تلك الأنباء الجديدة ، وتحت إلحاح النفس وحنينها إلى حرم الله وبيته العتيق(312).

ولكن قريشًا واجهت إسلام حمزة وعمر م بتدبيرات جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى، وكان من جراء ذلك الموقف العنيف أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرة ثانية، وانضم إليهم عدد كبير ممن لم يهاجروا قبل ذلك(313).

---

312) محمد سيد الوكيل ، تأملات في سيرة الرسول ف ، ص59

313) د. محمد النجار، القول المبين في سيرة سيد المرسلين ، ص111

قال ابن سعد: قالوا: لما قدم أصحاب النبي - ف - مكة من الهجرة الأولى اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديداً، فأذن لهم رسول الله - ف - في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية،

فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالأذى واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال رسول الله - ف -:(أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإلي، لكم هاتان الهجرتان جميعاً) قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله(314).

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلًا إن كان فيهم عمار وثماني عشرة أو تسع عشرة امرأة (315).

---

314) الطبقات الكبري ، 207/1

315) ابن القيم، زاد المعاد ، 61/1

مكيدة قريش بمهاجري الحبشة :

وبالرغم من أن مهاجري الحبشة قد فروا بدينهم من بطش قريش ،وتركوا أهليهم وذويهم ، وغابوا عن أوطانهم فرارا بدينهم من أرض الله مكة التي أحب بلاد الله إلي قلوبهم ، إلي أرض الله الحبشة ، إلا أن قريشا أبت إلا أن تؤذيهم في الحبشة ، وعز عليهم أن يكون أصحاب رسول الله - ف - قد آمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً واستقراراً، وحسن جوار من النجاشي، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد، فتفتق ذهنهم عن حيلة ماكرة ، فأتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفداً للنجاشي لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة، فعن أم سلمة بنت أبي أمية المغيرة زوج النبي - ف - قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار (النجاشي) أمنا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين ، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم(316)، فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته(317)

316) الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ.
317) جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم.

بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم قال: فخرجا فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار وخير جار. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه صبأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم،وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قومهم، لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى(318) بهم عينا، وأعلم بما عابوا عليهم فقالوا لهم: نعم ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا: أيها الملك إنه قد صبأ إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آباءهم وأعمامهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

318) أعلى بهم عيناً: أي أبصر بهم، أي عينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليردانهم إلى بلادهم وقومهم.

ولكن رأي النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعًا قالت : فغضب النجاشي ثم قال: لا هايم(319) الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد(320) قوماً جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعوهم فأسألهم مايقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم، ما جاوروني(321).

ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله - ف - فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا - ف - كائناً في ذلك ما هو كائن؛ فلما جاءه وقد دعا النجاشي أساقفته(322)، فنشروا مصاحفهم(323) حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني ولا دين أحد من هذه الأمم؟

---

319) كما لو قيل: هاوالله.

320) لا أكاد: يقولون إذا حمل أحدهم مايكره لا والله ولاكيد.

321) أخرجه أحمد (290/5) إسناده صحيح.

322) اساقفته: جمع الأسقف، وهو العالم والرئيس من علماء النصارى.

323) أي أناجيلهم وكانوا يمسونها مصاحف.

قالت فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب - ا- فقال له: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم،وقذف المحصنات،وأ مرنا أن نعبد الله وحده،لا نشرك به شيئًا،وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ؟ فقرأ عليه صدراً من كهيعص (1) [سورة مريم: الآية 1] ،

قالت: فبكى والله النجاشي، حتى أخضل(324) لحيته، وبكت أساقفته، حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فو الله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد- يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه ـ فخرجا، فلما خرج كل من عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من عند النجاشي قال عمرو بن العاص: والذي لآنبئهم غداً عيبهم عندهم، ثم أستأصل به خضراءهم(325)، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة -وكان أتقى الرجلين فينا- لا تفعل، فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه وقال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. قالت: ثم غدا عليه الغد فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه -

324) ابتلت بالدموع: يقال خضل وأخضل إذا ندي.

325) استأصل به خضراءهم: أي أقضي به على دهمائهم وسوادهم.

قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول، والله فيه، ما قال الله، وما جاء به نبينا كائناً في ذلك ماهو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء(326)، البتول(327).

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: ماعدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت(328) بطارقته حوله حين قال ما قال فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي (والشيوم الآمنون) من يسبكم غَرِمَ، ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبراً ذهباً، وإني آذيت رجلاً منكم، والدبر بلسان الحبشة الجعل، ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فو الله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي؛ فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في أطيعهم فيه،

326) العذراء: الجارية التي لم يمسها رجل وهي البكر.
327) يقال امرأة بتول: متقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم.
328) فتناخرت: أي تكملت وكأنه كلام مع غضب ونفور.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار(329).

وقد أسلم النجاشي، وصدق بنبوة الحبيب محمد - ف - وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه، لما علمه فيهم من الثبات على الباطل وحرصهم على الضلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة ، فقد روي عن أبي هريرة - ا - أن الحبيب محمد - ف - نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم وكبر عليه أربع تكبيرات)(330).

وعن جابر - ا - قال: قال الحبيب محمد - ف - حين مات النجاشي: مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة)(331).

وكانت وفاته -: - سنة تسع عند الأكثر وقيل سنة ثمان قبل فتح مكة(332).

329) مسند الإمام أحمد (203/1) ورجاله رجال الصحيح، وأنظر أيضا : ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 334- 338

330) البخاري، كتاب الجنائز ، باب التكبير على الجنازة (64/5) رقم 1333.

331) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، حديث رقم 3877.

332)ابن الأثير، أسد الغابة، 99/1،ابن حجر العسقلابي،الإصابة ،109/1، الصلابي،السيرة النبوية، 240/1

المفاوضات مع أبو طالب : (333)

لما فشلت محاولات قريش في إرجاع المسلمين من الحبشة ، وفشلت محاولات الوقيعة بينهم وبين النجاشي ، ورأوا أن الإسلام أصبح عزيزا في مكة بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، وتفلت الأمر من بين أيديهم ورأوا أن دعوة الحبيب محمد ف قد سرت خارج بلاد العرب اتبعت وسائل جديدة لمحاربة الدعوة ، فعملوا علي تجديد المفاوضات مع عمه أبو طالب عله يستجيب لهم ويمنع ابن أخيه عن دعوته ، فمشى رجال من أشرافهم إلى أبي طالب : عتبة وشيبة ابنا ربيعة . وأبو البختري بن هشام . والأسود بن المطلب . والوليد بن المغيرة. وأبو جهل بن هشام . والعاص بن وائل . ونبيه ومنبه ابنا الحجاج . ومن مشى منهم . فقالوا يا أبا طالب : إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فأما أن تكفه عنا وأما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه . فقال لهم أبو طالب قولا جميلا وردهم ردا رقيقا فانصرفوا عنه ومضى الحبيب محمد ف لما هو عليه . (334)

---

333) سبق وأن تكلمنا عن تفاصيل هذه المفاوضات عند الحديث عن وسائل قريش في صد الدعوة الإسلامية لما كان الترتيب الموضوعي يستلزم ذلك ، أما وقد تتبعنا الترتيب الزمني فكان لزامنا علينا إعادة تفصيل هذا الحدث حتى يستقيم الترتيب الزمني .

334) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 1 / 265

ثم لما تباعد الرجال وتضاغنوا وأكثرت قريش ذكر الحبيب محمد ف فكروا في مفاوضة أبي طالب مرة أخرى . فمشوا إليه وقالوا : يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا وانأ قد اشتنهيناك أن تنهي ابن أخيك فلم تفعل . وأنا والله لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياكفي ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه .

عَظُم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى الحبيب محمدف فأعلمه ما قالت قريش وقال له : أبق على نفسك وعلى ولا تحملني من الأمر مالا أطيق . فظن الحبيب محمد ف أن عمه قد خذله وضعف عن نصرته . فقال له " يا عماه لو وضعوا الشمس في يميني القمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته " ثم بكى رسول الله ف وقام . فلما ولى ناداه أبو طالب فأقبل عليه وقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبدا ، وأنشد:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا (335)

---

335) علي بن برهان الدين الحلبي ، السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون ،1 / 462

أصر أبو طالب على الدفاع عن ابن أخيه قياما بالواجب عليه نحو من تربى في كفالته ونشأ في بيته وعملا بالمروءة . ولكنه مع ذلك بقى على دينه ولم يعتنق الإسلام . لذلك صارت مهمته شاقة ومركزه حرجاً، فأمامه قريش متعصبة لدينها وقد أغضبها قيام الحبيب محمد ف بنشر الإسلام ومحاربة الأصنام . وصاحب الدعوة لا يثنيه عن القيام بما أمر به سخرية ساخر أو اضطهاد مضطهد فلو أنأبا طالب أسلم لكان دفاعه أعظم وحجته أبلغ أمام العرب وأحكم

لم تيأس قريش من محاورة أبو طالب فمشوا إليه بعمارة بن الوليد . فقالوا يا أبا طالب : هذا عمارة بن الوليد فتى قريش وأشعرهم وأجملهم فخذه فلك عقله(336) ونصرته فأتخذه ولدا وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا وخالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك نقتله فإنما رجل برجل . فقال : والله لبئس ما تسومونني أتعطونني أبنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبدا . فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف:

336) فلك عقله : أي ديته إذا قتل

لقد أنصفك قومك وما أراك تريد أن تقبل منهم . فقال والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك .

وكل عاقل يرى أن ما عرضته قريش على أبي طالب في غاية السخف لكنهم كانوا يتلمسون الحيل للخلاص من صاحب الدعوة الحبيب محمد ف بأي حال فلما يئسوا من إجابة طلبهم اشتدت قريش على من أسلم فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم . وقام أبو طالب في بني هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله ف فأجابوا إلى ذلك واجتمعوا وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة . إلا ما كان من أخيه أبي لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش (337)

337) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 3 / 48

الحصار الاقتصادي والاجتماعي في العام السابع من البعثة (338)

ازداد إيذاء المشركين من قريش أمام صبر الحبيب محمد ف والمسلمين على الأذى، وإصرارهم في الدعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي الذي ضربته قريش ظلماً وعدواناً على النبي ف وأصحابه ومن عطف عليهم من قرابتهم .

قال الزهري: (ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ف علانية؛ فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ف شعبهم ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيماناً ويقيناً، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا الحبيب محمد ف فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا الحبيب محمد ف للقتل ، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهوداً ومواثيق؛ لا يتقبلوا من بني هاشم أبداً صلحاً، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل(339).

338) سبق وأن تناولنا هذه النقطة بالشرح والتفصيل عند الحديث عن سبل قريش في مواجهة دعوة الإسلام ، ووجدنا أنه لا مانع من إعادة تفصيل هذا الحدث المهم في السيرة النبوية حتى يستقيم الترتيب الزمني للأحداث ، وحتى تعم الفائدة .

339) السرة النبوية لابن كثير ، 2/43-72، الروض الأنف ، 2/101-129.

وفي رواية: (على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، لا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، ولا يدعوا سبباً من أسباب الرزق يصل إليهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رأفة، ولا يخالطوهم، ولا يجالسوهم، ولا يكلموهم، ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا إليهم رسول الله للقتل، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم(340).

فلبثت بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، وأشتد عليهم البلاء والجهد وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركوا طعاماً يقدم من مكة ولا بيعاً إلا بادروهم إليه فاشتروه يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ف .

وكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ف فأتى فراشه حتى يراه من أرد به مكراً أو غائلة، فإذا نام الناس أخذ أحد بنيه أو أخواته أو بني عمه فاضطجع على فرش رسول الله ف ، وأمر رسوله أن يأتي بعض فرشهم فيرقد عليها(341).

واشتد الحصار على الصحابة وبني هاشم وبني المطلب حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقعة شيء تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير فيأخذها فيغسلها،

---

340) السيرة النبوية لابن هشام ، 350/1؛ زاد المعاد ، 46/2؛ الكامل في التاريخ لابن الأثير ، 87/2.
341) فقه السيرة النبوية للغضبان، ص180.

ثم يحرقها ثم يسحقها، ثم يستفها، ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشعب من الجوع(342)!

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحًا إلى عمته خديجة ك وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البخترى، ومكنه من حمل القمح إلى عمته .

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناساً من أشراف قريش وكان الذي تولى الإنقلاب الداخلي لنقض الصحيفة هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثيات وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها؛ فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أبغنا ثالثاً.

342) السيرة النبوية دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 4 /127

فذهب إلى المُطْعِم بن عدي فقال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنَّهم إليها منكم سراعاً قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد قال : قد وجدت لك ثانياً، قال من ؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً، قال : قد فعلت قال: من؟ قال زهير بن أبي أمية، فقال أبغنا رابعاً، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحد يعين على ذلك؛ قال: نعم: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: أبغنا خامساً فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقهم فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد، قال: نعم ، ثم سمّى له القوم؛ فاتَّعدوا خطم الحَجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أما أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة،

فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت

فقال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نُقِرّ به، فقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذلك من قال غير ذلك، نبرأ من الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تشوور فيه في غير هذا المكان وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتهاإلا (باسمك اللهم)(343) . ثم نقض الصحيفة وخرج رسول الله ف ومن معه من الشعب، وقد رأي المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم ـ كما أخبر الله عنهم

وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (2) [سورة القمر: الآية 2]

أعرضوا عن هذه الآية وأزدادوا كفرَا إلى كفرهم . (344). عاد بنو هاشم المسلمون إلى دورهم وإلى مزاولة حياتهم العادية في مكة، وإن كانت قريش قد استمرت في سياسة المقاومة والعدوان.

---

343) انظر: السيرة النبوية لابن كثير ، 2/43-50، 67-69.

344) السـير والمغازي لابن إسـحاق، ص156-162، السـيرة النبوية - دروس وعبر في تربية الأمة وبناء الدولة ، 4 /129

عام الحزن:

لم تمض عدة شهور على تمزيق صحيفة المقاطعة وخروجه مع أهله إلى الحياة، حتى فاجأت الحبيب محمد -ف - في عام واحد فاجعتان اهتز لهما قلبه، وهما: موت أبي طالب، وموت السيدة خديجة -ا - ولقد حزن الرسول-ف - عليهما حزنًا شديدًا لما كان لهما من أثر بالغ في نصرة الإسلام والدفاع عنه ضد أعدائه.

وفاة أبو طالب :

وكانت وفاة أبي طالب بعد مغادرة بني هاشم شعبه، وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث وقد كان أبو طالب يحوط النبي ويغضب له وينصره، وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة جاء زعماء الشرك وحرضوه على الاستمساك بدينه وعدم الدخول في الإسلام قائلين: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وعرض عليه رسول الله ف الإسلام قائلاً: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة» فقال أبو طالب: لولا تعيرني بها قريش، يقولون: إنما حمله عليها الجزع، لأقررت بها عينك فأنزل الله:

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ [سورة القصص: الآية 56]

كانت أفكار الجاهلية راسخة في عقل أبي طالب، ولم يتمكن من تغييرها، فهو شيخ كبير يصعب عليه تغيير فكره وما ألفه عن آبائه، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره، فأثروا عليه خوفًا من شيوع خبر إسلامه وتأثير ذلك على قومه(345).

وفاة خديجة :

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام ـ على اختلاف القولين توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى ك وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، والحبيب محمدف إذ ذاك في الخمسين من عمره . إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على الحبيب محمد ف ، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر،وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول اللهف : (آمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقتني حين كذبني الناس، وأشركتنيفي مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرم ولد غيرها)(346)

345) العمري ،السيرة النبوية الصحيحة ، 1/184- 185

346) أورده الهيثمي في "المجمع" 9/ 224 من حديث عائشة وقال: رواه أحمد بإسناد حسن. وأحاديث فضائل خديجة -رضـــي الله عنها- كثيرة جدًا، انظر "مجمع الزوائد" 9/ 218 وما بعدها، و"جامع الأصـــول" 7/ 338 وما بعدها.

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي ف ، فقال : يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشرها ببيت في الجنة من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ (347).

وبموت أبي طالب الذي أعقبه موت خديجة ا ا، تضاعف الأسى والحزن على رسول الله ف بفقد هذين الحبيبين، اللذين كانا دعامتينمن دعائم سير الدعوة في أزماتها، كان أبو طالب السند الخارجي الذي يدفع عنه القوم وكانت خديجة السند الداخلي الذي يخفف عنه الأزمات والمحن، فتجرأ كفار قريش على رسول الله ف ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون به في حياة أبي طالب ، حتى قال الرسول -ف - عنه: "والله ما نالت مني قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب" (348).

وابتدأت مرحلة عصيبة في حياة الرسول ف واجه فيها كثيراً من المشكلات والمصاعب، والمحن والفتن، حينما أصبح في الساحة وحيدًا لا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالى،

---

347) صحيح البخاري ، باب تزوج الحبيب محمد فخديجة وفضلها ، 935/1 ، الرحيق المختوم ، ص 93

348) أخرجه ابن إسحاق في السيرة عن هشام بن عروة عن أبيه مرسلًا، ونقله عنه الحافظ ابن كثير في "البداية" 3/ 122، وابن حجر في "الفتح" 7/ 194، ولم أره من وجه متصل صحيح.

ومع هذا، فقد مضى في تبليغ رسالة ربه إلى الناس كافة على ما يلقى من الخلاف والأذى الشديد، الذي أفاضت كتب الحديث وكتب السير بأسانيدها الصحيحة الثابتة في الحديث عنه، وتحمل ف من ذلك ما تنوء الجبال بحمله.

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبي ف اشتدت على أصحابه حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق ا إلى الهجرة عن مكة، فخرج حتى بلغ بَرْك الغِمَاد، يريد الحبشة، فأرجعه ابن الدَّغُنَّة في جواره(349) .

349) لما ابتلي المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجرا نحو أرض الحبشة حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة قال : أين تريد يا أبا بكر ؟ قال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي قال ابن الدغنة : فإن مثلك لا يخرج ولا يخرج ، إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل (العيال ومن يحتاج إلى رعاية ونفقة) ، وتقري (تكرم) الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار فارجع ، فاعبد ربك ببلدك ، فارتحل ابن الدغنة مع أبي بكر رضي الله عنه ، وطاف في أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ، فأنفذت قريش جوار ابن الدغنة ، وأمنوا أبا بكر ، وقالوا لابن الدغنة : مر أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصل وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ، ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فقال ابن الدغنة ذلك لأبي بكر ، فلبث أبو بكر يعبد ربه في داره ولا يستعلن بالصلاة ، ولا بالقراءة في غير داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجدا بفناء داره ، وبرز فكان يصلي فيه ، ويقرأ القرآن ، فيتقذف عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، يعجبون وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلا بكاء لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم فقالوا له : إنا كنا أجرنا أبا بكر على أن يعبد ربه في داره ، وإنه جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، وأعلن الصلاة والقراءة ، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فأته فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان . قالت عائشة: فأتى ابن الدغنة أبا بكر ، فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترد إلي ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب إني أخفرت (نقض العهد) في رجل عقدت له ، فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل .أنظر : صحيح البخاري ، 1/552-553

قال ابن إسحاق : لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ف من الأذى ما لم تطمع به في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه ترابًا، ودخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ف يقول لها : (لا تبكي يابنية، فإن الله مانع أباك) . قال : ويقول بين ذلك : (ما نالت منى قريش شيئًا أكرهه حتى مات أبو طالب) (350).

ولأجل توالى مثل هذه الآلام في هذا العام سمى بعام الحزن، وعرف به في السيرة والتاريخ .

---

350) أخرجه ابن إسحاق في السيرة عن هشام بن عروة عن أبيه مرسلًا، ونقله عنه الحافظ ابن كثير في "البداية" 3/ 122، وابن حجر في "الفتح" 7/ 194، ولم أره من وجه متصل صحيح.

الزواج بسودة

وفي شوال من هذه السنة ـ سنة 10 من النبوة ـ تزوج رسول الله ف سودة بنت زمعة، كانت ممن أسلم قديمًا وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو، وكان قد أسلم وهاجر معها، فمات بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حلت خطبها رسول الله ف وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وكانت قد وهبت نوبتها لعائشة ك أخيرًا (351).

351) عن النعمان بن ثابت عن الهيثم أن رسـول الله فقال لسـودة ابنة زمعة: اعتدي، فتعرضـت له في طريقه فقالت له: نشـدتك بالله ألا راجعتني ولك يومي أجعله لأي نسـائك شـئت فإنما أريد أن أحشـر من أزواجك يوم القيامة فراجعها رسول الله.) أنظر : ابن اسحاق ، السيرة النبوية ، 90/1

رحلة الطائف :

ولما تكالبت الفتن والمحن على رسول الله ف في بلده الذي نبت فيه وبين قومه الذين يعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة، عزم ف على أن ينتقل إلى بلد غير بلده، وقوم غير قومه، يعرض عليهم دعوته، ويلتمس منهم نصرتهم، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل، فخرج إلى الطائف، وهي من أقرب البلاد إلى مكة.

وفي شوال سنة عشر من النبوة خرج النبي ف إلى الطائف ، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا، سارها ماشياَ على قدميه جيئة وذهاباً، ومعه مولاه زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها .

فلما انتهي إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام، فقال أحدهم : هو يَمْرُطَ(يمزق) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطراَ من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك . فقام الحبيب محمد ف من عندهم - وقد يئس من خير ثقيف -

و قال لهم : إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا علي . وكره الحبيب محمد ف أن يبلغ قومه فيتجرأون عليه ، فلم يفعلوا و أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس ، وقعدوا له صفين على طريقه فلما مر الحبيب محمد ف بين صفيهم جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه ، وأنه ف كان إذا أذلقته الحجارة قعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه فيقيمونه فإذا مشي رجموه وهم يضحكون وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجَاج في رأسه، (352).

مازالوا به وبزيد بن حارثة حتى ألجأوهما إلى حائط -بستان- لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فكره مكانهما لعداوتهما الله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وصاحبه زيد ريثما يستريحا من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعا ينظران إليه، ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف، ولم يحركا ساكناً، وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن والآلام النفسية والجسمانية توجه الرسول - ف - إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيماناً ويقيناً، ورضًا بما ناله في الله، واسترضاء الله:

---

352) أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي ، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، تحقيق : د . محمد كمال الدين عز الدين علي ، عالم الكتب - بيروت - 1417هـ ، 229/1

(اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك لك العُتبى(الاسترضاء) حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله).

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيَا يقال له : عَدَّاس، وقالا له : خذ قطفًا من هذا العنب، واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله ف مد يده إليه قائلا : (باسم الله) ثم أكل .

فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول اللهف : (من أي البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصراني من أهل نِينَوَى . فقال رسول الله ف: من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى) . قال له : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال رسول الله ف: (ذاك أخي، كان نبيَا وأنا نبي)، فأكب عداس على رأس رسول اللهف ويديه ورجليه يقبلها .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء عداس قالا له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدى، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبى، قالا له : ويحك يا عداس ، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه (353).

لقد كان في إسلام عداس مواساة عظيمة للحبيب محمد ف ، فلئن آذاه قومه، فهذا وافد من العراق من نينوى يكب على يديه ورجليه، ويقبلهما، ويشهد له بالرسالة وإن هذا لقدر رباني يسوق من نينوى من يؤمن بالله ورسوله حيث كان الصد من أقرب الناس إليه.

ورجع رسول الله ف في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيباَ محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة .

وقد روى البخاري تفصيل القصة ـ بسنده ـ عن عروة بن الزبير، أن عائشةك حدثته أنها قالت للنبي ف : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : (لقيت من قومِ كِ ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياِليل بن عبد كُلاَل،

353) صحيح السيرة النبوية، ص136، 137.

فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم ـ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقَرْنِ الثعالب ـ وهو المسمى بقَرْنِ المنازل ـ فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فناداني ملك الجبال، فسلم عليّ ثم قال : يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ـ أي لفعلت و الأخشبان : هما جبلا مكة : أبو قُبَيْس والذي يقابله، وهو قُعَيْقِعَان ـ قال النبي ف : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا) .

وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول ف تتجلى شخصيته الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم لا يدرك غوره(354) .

قال ابن القيم: (إن رسول الله ف بعد أن لم يجد ناصراً في الطائف انصرف إلى مكة ومعه مولاه زيد بن حارثة محزوناً وهو يدعو بدعاء الطائف المشهور، فأرسل ربه تبارك وتعالى ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة،

354) الرحيق المختوم ، ص 100

وهما جبلاها اللذان كانت بينهما، فقال لا بل أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً، وأقام بنخلة أياماً، فقال له زيد بن حارثة: (كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك. يعني قريشاً، وخرجت تستنصر فلم تنصر، يعني الطائف) فقال: (يازيد : إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه..)(355). وأفاق رسول الله ف واطمأن قلبه لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله عليه من فوق سبع سموات، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أيامًا . وفي وادى نخلة موضعان يصلحان للإقامة ـ السّيل الكبير والزَّيْمَة ـ لما بهما من الماء والخصب، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته ف فيه .

وخلال إقامته ف هناك بعث الله إليه نفراَ من الجن ذكرهم الله في موضعين من القرآن : في سورة الأحقاف : وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) [سورة الأحقاف: الآية 29-31]

355) انظر: زاد المعاد ، 46/2.

وفي سورة الجن : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (15) إلى تمام الآية الخامسة عشر [سورة الجن: الآية 1-15] هبط هؤلاء الجن على النبي ف وهو يقرأ ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا: (أَنْصِتُوا). هذه الدعوة التي رفضها المشركون بالطائف، تنتقل إلى عالم آخر هو عالم الجن، فتلقوا دعوة الحبيب محمدف ، ومضوا بها إلى قومهم، كما مضى بها أبو ذر الغفاري إلى قومه، والطفيل بن عمرو إلى قومه، وضماد الأزدي إلى قومه، فأصبح في عالم الجن دعاة يبلغون دعوة الله تعالى:

يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31) [سورة الأحقاف: الآية 31]

وأصبح اسم محمد ف تهفو إليه قلوب الجن، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجن حواريون، حملوا راية التوحيد، ووطنوا أنفسهم دعاة إلى الله. ونزل في حقهم قرآن يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها،

قال تعالى:

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (3) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (4) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (5) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (6) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (7) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (9) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (10) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (12) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (13) [سورة الجن: الآيات 1-13]

كان هذا الفتح الرباني في مجال الدعوة، ورسول الله ف ببطن نخلة عاجز عن دخول مكة، فهل يستطيع عتاة مكة وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجن، وينزلوا بهم ألوان التعذيب؟ وعندما دخل النبي ف مكة في جوار المطعم بن عدي كان يتلو على صحابته سورة الجن فتتجاوب أفئدتهم خشوعًا وتأثراَ من روعة الفتح العظيم في عالم الدعوة، وارتفاع راياتها، فليسوا هم وحدهم في المعركة، هناك إخوانهم من الجن يخوضون معركة التوحيد مع الشرك.

وحقًا كان هذا الحادث نصراَ آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي ف ، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها :

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۚ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (32) [سورة الأحقاف: الآية 32] ،

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (12) [سورة الجن: الآية 12]

وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله ف جاء الوفد الثاني متشوقًا لرؤية الحبيب المصطفى ف والاستماع إلى كلام رب العالمين.

فعن علقمة قال سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ف ليلة الجن؟ قال: لا، ولكننا كنا مع رسول الله ف ذات ليلة ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: استُطِير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا شر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن» قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا وكل بعرة علف لدوابكم» فقال رسول الله ف : «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»(356).

أمام هذه النصرة، وأمام هذه البشارات، أقشعت سحابة الكآبة والحزن واليأس التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف وعزم على العود إلى مكة وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة.

غير أن دخول مكة لم يكن أمراَ هينًا ولا آمنًا، وهنالك احتمال كبير للغدر به من قبل قريش، التي لا يمكن أن تصبر أكثر، وهو قد أعلن الخروج عليها وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى، ويوقع بينها وبين حلفائها، ثم إنه حتى لو لم تكن هناك خطورة على شخصه، فإن دخوله إلى مكة بصورة (عادية)

356) مسلم، كتاب الصلاة،332/1، رقم 150.

وقد رفضت الطائف دعوته ، سيجعل أهل مكة يصورون الأمر كهزيمة كبيرة أصابت المسلمين ويجترئون عليهم ويزدادون سفهًا، ولذلك فقد اتجه نظر الحبيب محمد ف هذه المرة إلى تفجير مكة من الداخل بدلاً من تطويقها من الخارج، أي أراد أن يتغلغل في داخل بطون قريش ذاتها، ويُوجِد له حلفاء من بينهم وَيُكَوِن له وجودًا في قلبها.

لما رأي زيد بن حارثة تصميم الحبيب محمد ف علي دخول مكة قال له : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعنى قريشًا، فقال : (يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه) (357) .

وذكر ابن هشام في السيرة في معرض الحديث عن إجارة المطعم بن عدي: إنهف لما انصرف من الطائف ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه ونصرته صار إلى حراء ثم بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال له: إن بني عامر لا تجير على بني كعب فبعث إلى المطعم بن عدي -سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف- بعث إليه رجلاً من خزاعة، «أدخل في جوارك؟» فقال: نعم: ودعا بنيه وقومه فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمدًا، فدخل رسول الله ف ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدي على راحلته

357) ابن القيم ، زاد المعاد ، 46/2.

فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، فانتهى رسول الله ف إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، والمطعم بن عدي وولده محدقون بالسلاح حتى دخل بيته.

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعمًا : أمجير أنت أم متابع ـ مسلم ؟ . قال : بل مجير . قال : قد أجرنا من أجرت (358) .

ولم يكن ذلك الموقف فقط هو الذي يذكر بخير للمطعم ، فقد كانت له يد بيضاء علي الإسلام حينما كان ممن قام بنقض الصحيفة الظالمة وأسهم مع غيره في إخراج المسلمين المحاصرين في شعب أبي طالب .

وقد حفظ رسول الله ف صنيع مطعم بن عدي، وعرف مدى الخطورة التي عرض نفسه وولده وقومه لها من أجله، وما كان له من يد في نقض الصحيفة الظالمة فقال عن أسارى بدر السبعين يوم أسرهم: «لو كان المطعم بن عدي حيّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»(359)

---

358) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 381/1، ابن القيم ، زاد المعاد ، 47/2.

359) البخاري، 110/3 ، الرحيق المختوم ، ص 101

عرض الإسلام علي القبائل والأفراد :

بعد أن عاد الحبيب محمد - ف - من الطائف، بدأ يعرض نفسه على القبائل والأفراد في المواسم التجارية ومواسم الحج حيث كان الناس يأتون إلي مكة رجالا ، وعلي كل ضامر يأتين من كل فج عميق لقضاء فريضة الحج ، ولشهدوا منافع لهم ، فكان ف يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة، حتى يبلغ كلام الله عز وجل وكان الحبيب محمد ف يصاحبه أبو بكر الصديق الرجل الذي تخصص في معرفة أنساب العرب وتاريخها، وكانا يقصدان (غرر الناس ووجوه القبائل، وكان أبو بكر ا ، يسأل وجوه القبائل ويقول لهم كيف العدد فيكم؟ وكيف المنعة فيكم؟ وكيف الحرب فيكم؟ وذلك قبل أن يتحدث رسول الله - ف - ويعرض دعوته، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من البعثة (360).

يقول المقريزي:(ثم عرض - ف - نفسه على القبائل أيام الموسم ودعاهم إلى الإسلام، وهم بنو عامر، وغسان، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو حنيفة، وبنو سليم، وبنو عبس، وبنو نصر، وثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وبنو الحارث بن كعب، وبنو عذرة وقيس بن الخطيم، وأبو اليسر أنس بن أبي رافع)

360) السمعاني ،الأنساب ، 36/1.

وقد أقتص الواقدي أخبار هذه القبائل قبيلة، قبيلة ويقال أنه ف بدأ بكندة فدعاهم إلى الإسلام ثم أتى كلباً ثم بني حنيفة ثم بني عامر، وجعل يقول: من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي؟ هذا وأبو لهب وراءه يقول للناس: لا تسمعوا منه فإنه كذاب(361).

وهذه القبائل التي سماها المقريزي وغيره من المؤرخين لم يكن عرض الإسلام عليها في سنة واحدة ولا في موسم واحد، بل إنما كان ما بين السنة الرابعة من النبوة إلى آخر موسم قبل الهجرة . ولا يمكن تسمية سنة معينة لعرض الإسلام على قبيلة معينة، ولكن الأكثر كان في السنة العاشرة (362).

وقد عرض الحبيب محمد – ف – الإسلام علي بني كلب فأتى بطناً منهم يقال لهم : بنو عبد الله، فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه، حتى إنه ليقول لهم : (يا بني عبد الله، إن الله قد أحسن اسم أبيكم) ، فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم .

وأتي بنو حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردًا منهم .

---

361) المقريزي ، إمتاع الأسـماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع ، تحقيق محمد عبد الحميد النميسى ، دار الكتب العلمية ، ط الأولى ، 1999/1420. ، بيروت ، 31/1،30.

362) الرحيق المختوم ، 1 /129

ولما أتى الحبيب محمد ف بني عامر بن صعصعة، فدعا إلى الله وعرض عليهم نفسه، قال له رجل منهم يقال له بحيرة بن فراس:(والله لو أني أخذت هذا الفتى لأكلت به العرب، ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال الأمر لله يضعه حيث يشاء، فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟ لا حاجة لنا بأمرك.

ولما رجعت بنو عامر تحدثوا إلى شيخ لهم لم يواف الموسم لكبر سنه، وقالوا له: جاءنا فتى من قريش من بني عبد المطلب يزعم أنه نبى، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر وهل لها من تَلاَف ؟ هل لذُنَابَاها من مَطْلَب ؟ (363) والذي نفس فلان بيده ما تَقَوّلَها إسماعيلى قط، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم ؟ (364) .

وقد عرض الحبيب محمد – ف – نفسه علي بني شيبان ، فقد روي عن علي بن أبي طالب ا قال: لما أمر الله عزوجل نبيه - ف - أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج وأنا معه ...إلى أن قال ثم دفعنا إلى مجلس آخر عليه السكينة والوقار فتقدم أبو بكر فسلم فقال من القوم؟ قالوا شيبان ابن ثعلبة فالتفت أبو بكر إلى رسول الله - ف - وقال بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس وفيهم مفروق قد غلبهم لساناً وجمالاً وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته

363) مثل يضرب لما فات ، وأصله من ذنابي الطائر إذا افلت من حباله فطلبت الأخذ من أذنابه .
364) ابن هشام ، السيرة النبوية ، 424/1- 425 ، الرحيق المختوم ، 130/1

وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر فقال أبو بكر كيف العدد فيكم فقال مفروق إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة فقال أبو بكر وكيف المنعة فيكم فقال مفروق إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى وأشد ما نكون لقاء حين نغضب وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد والسلاح على اللقاح والنصر من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا أخرى لعلك أخا قريش؛ فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله ف فها هو ذا. فقال: مفروق إلام تدعونا يا أخا قريش. فقال رسول الله ف أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأني عبد الله ورسوله وإلى أن تؤووني وتنصروني فإن قريشاً قد تظاهرت على الله وكذبت رسوله واستغنت بالباطل عن الحق والله هو الغني الحميد، فقال مفروق وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش فو الله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا فتلا رسول الله ف

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ [سورة الأنعام: الآية 151]

فقال مفروق: دعوت والله إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ولقد أفك قوم كذبوك وظاهروا عليك ثم رد الأمر إلى هانئ بن قبيصة فقال: وهذا هانئ شيخنا وصاحب ديننا فقال هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش وإني أرى تركنا ديننا وإتباعنا دينك لمجلس جلست إلينا لا أول له ولا آخر لذل في الرأي وقلة نظر في العاقبة أن الزلة مع العجلة وأنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً ولكن نرجع وترجع وننظر ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا فقال المثنى - وأسلم بعد ذلك - قد سمعت مقالتك يا أخا قريش والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة في تركنا ديننا ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صريين أحدهما اليمامة والآخر السمامة فقال له رسول اللهف ما هذان الصريان قال انهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من انهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور وعذره غير مقبول وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى إن لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثاً وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش مما تكره الملوك فإن أحببت أن نؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا

فقال رسول الله ف ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق وإن دين الله عزوجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم وديارهم ويفرشكم نساءهم أتسبحون الله وتقدسونه فقال النعمان اللهم فلك ذاك(365).

وفي الحقيقة أن موقف بني شيبان كان يتسم بالأريحية والخلق والرجولة وينم عن تعظيم هذا النبي، وعن وضوح في العرض، وتحديد مدى قدرة الحماية التي يملكونها وقد بينوا أن أمر الدعوة مما تكرهه الملوك، وقدّر الله لشيبان بعد عشر سنين أو تزيد أن تحمل هي ابتداءَ عبء مواجهة الملوك بعد أن أشرق قلبها بنور الإسلام، وكان المثنى بن حارثة الشيباني صاحب حربهم وبطلهم المغوار الذي قاد الفتوح في أرض العراق، في خلافة الصديق ا فكان وقومه من أجرأ المسلمين بعد إسلامهم على قتال الفرس، بينما كانوا في جاهليتهم يرهبون الفرسولا يفكرون في قتالهم،

365) ابن كثير ، البداية والنهاية ، 145/3،143،142، الصلابي ، السيرة النبوية ، 283/1

بل إنهم ردوا دعوة الحبيب محمد - ف - بعد قناعتهم بها لاحتمال أن تلجئهم إلى قتال الفرس، الأمر الذي لم يكونوا يفكرون به أبداً، وبهذا نعلم عظمة هذا الدين الذي رفع الله به المسلمين في الدنيا حيث جعلهم سادة الأرض، مع ما ينتظرون في أخراهم من النعيم الدائم في جنات النعيم(366).

ولم يكن رد القبائل علي الحبيب محمد – ف – واحد ، فإن كانت شيبان قد ردت رداً جميلاً إلا أن بقية القبائل قد مالت نحو الصدود والإعراض ، وقد تعرض فللأذى العظيم، فقد روى الترمذي عن جابراقال:كان النبي ف يعرض نفسه بالموقف فقال:(ألا رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي) وظل النبي - ف - في تردده على القبائل يدعوهم، فيردون عليه أقبح الرد ويؤذونه ويقولون: قومه أعلم به، وكيف يصلحنا من أفسد قومه فلفظوه(367) وكانت الشائعات التي تنشرها قريش في أوساط الحجاج تجد رواجاً وقبولاً مثل الصابئ وغلام بني هاشم الذي يزعم أنه رسول، وغير ذلك ولاشك أن هذا كان مما يحز في نفس الحبيب محمد - ف - ويضاعف ألم التكذيب وعدم الاستجابة(368).

---

366) الحميدي ،التاريخ الاسلامي ، 69/3.
367) ابن عبد البر ، الدرر ، ص35، ابن كثير ، السيرة النبوية ، 185/2.
368) الصلابي ، السيرة النبوية ، 280/1

ولم يقتصر الأذى على ذلك بل واجه الرسول - ف- ما هو أشد وأقسى فقد روي عن مدرك بن منيب أيضاً عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: رأيت رسول الله - ف - في الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبّه حتى انتصف النهار، فأقبلت جارية بعسّ من ماء فغسل وجهه ويديه، وقال: يا بنية لا تخشي على أبيك غلبة ولا ذلة، فقلت: من هذه؟ قالوا: زينب بنت رسول الله ف وهي جارية وضيئة(369).

وقد كان أبو جهل وأبو لهب لعنهما الله يتناوبان على أذية رسول الله ف عندما يدعو في الأسواق والمواسم وكان يجد منهما عنتاً كبيراً، إضافة إلى ما يلحقه من المدعوين أنفسهم(370).

---

369) الطبراني في معجمه الكبير ج 20/ ص 343 حديث رقم: 805 ، وأنظر أيضاً: محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولى 1414 هـ - 1993 م ، 452/2

370) الصلابي ، السيرة النبوية ، 280/1